

# قراءة نقدية كتب السيرة النبوية

إعداد  
أ. صلاح عبد السلام



مكتبة المشاهدة العامة

١٩٨٩

## شكر واجب

أشكر السيد الأستاذ الدكتور محمد عمارة مراجعته لكتابين السابق « زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم » والتوصية بنشره كما أشكر له مراجعته لهذا الكتاب أيضا والتوصية بنشره « لما له من فائدة لجمهور القراء ولعامة المتففين ، بل ولقطاع من خاصتهم ، الذين لا جلد لهم على تحصيل مؤهلات النظرة النقدية في مصادر التاريخ والسيرة التي كتبها القدماء ، ولا وقت لهم لجمع الآراء الناقدة التي تناشرت في كتب حديثة كثيرة - الناقدة لما في هذه المصادر القديمة من مبالغات وإسرائيليات » كما قال سيادته ، هذا ومن الحق أيضا أن نقرر بأنه صاحب الفضل في عنونة الكتاب هذا العنوان الذي يتحلى به .

والله أسأل أن يمتعنا بعلمه ، وأن يمتعه بالصحة ويقيض عليه من نعمائه ..

اصلاح عبد السلام حسن

الإخراج الفني : ماجده البنا

تصميم الغلاف : أسامة سعيد

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تمهيد

ترك لنا أجدادنا تراثا ضخما مكتوبا في شتى العلوم والفنون لا مثيل له في أمة من الأمم ، وخاصة ما كتبه عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم - للأسف الشديد - أخطأوا كثيرا فيما كتبه ، فلقد قبل بعض كتاب السيرة القصص الاسرائيلي ، والقصص الموضوع الذي يجافي روح القرآن وعمل الرسول ، لما فيه من اغراق في رواية الخوارق ، وابتعاد عن حدود العقل لظنهم أن ذلك مما يزين السيرة ويكسيها رواء . ويقربها الى افهام الناس ، دون أن يفتنوا الى أن رواية هذا النوع من القصص مضر بالحق ، مضر بالتاريخ ، كما يغض من شأن النصر الانساني الذي أحرزه النبي .

لقد رسموا صورة عن حياة الرسول وصلتنا في تفاصيل دقيقة وصادقة فقط في خطوطها الرئيسية ، أما سائر الألوان فقد جاءت نتيجة الاغراق في التقوى ، والميل مع الهوى ، مجارة للخيال الشعبي لدى الجماهير الساذجة وارضاء لرغبتهم في تعظيم البطل ورفع فوق درجة الانسان الى اقصى حد مستطاع ، او لعله قد خيل اليهم

أن الكذب آية ح ب، وأن محمدا لا يكون عظيما الا اذا اضعفوا عليه من الصفات مثل التي افترأها النصارى على المسيح ، فصوروا محمدا في صورة انسان فوق الانسانية ، له قوى ربانية خارقة تسيطر على الدنيا ، وتتحكم في مصير الوجود ، ولا يخفى عليها منه شيء !!

وابتدعوا قصصا وأحاديث ، أو نقلوها - بحسن نية أو بنية لئيمة مبيتة - هي نفثات يهودية ، ومفتريات وثنية ، وضلالات صليبية ، ورددتها الألسن والأقلام على مر العصور ، وكأنها حقائق وقضايا مسلمة دون تمحيص أو حتى ادنى تأمل ، وتلفتت الأجيال - خلفها عن سفنها - كل ذلك . وصنع التاريخ الكذوب لمن افترأ هذه الأكاذيب أو لمن ردوها عن بلاهة عروشا تسجد تحتها أفكار أجيال وأجيال ، وسخر لتمجيد تلك الأكاذيب كثيرا من الألسن والأقلام ، قصار من الصعب ، بل من المستحيل أن يفكر أحد في نقد شيء من هذا التراث ، أو تعرية ما فيه من أكاذيب وكشف ما فيه من أخطاء ، والويل كل الويل لمن يجرؤ على ذلك .

وصارت الترهات الممجوجة ، والأساطير السانجة والبدع والخرافات وكأنها درر تتلألأ بنور الحق . بل صارت من أحب ما يمشق الناس مما كتب عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وصارت مكانة هؤلاء أعلى مكانة ، ولهم أقوى سلطان يستطيع أن يعصف بكل من تسول له نفسه أن ينقد أو يقول كلمة حق تدحض تلك الضلالات ، أو تصحح تلك الأخطاء ، نعم : ان الباطل الذي سخر هذه العقول والألسنة والأقلام ، وملأ بطون أربابها بسحته لا يحب ولا يرضى أن يكشف الناس أنه باطل ، لأنه - بما هو عليه في عقول عبيد الخرافة ومصدقياها - يعيش مسجودا له ، معبودا مقدسا تساق إليه الهدايا والتعم والقرايين ، وتحشد الدنيا في باحاته وساحاته واحتفالاته وموائد بكل ترفها وزينتها وقسوقها ، وهيئة كبيرة العدد ، ضالة ومضللة من المنتفعين ترقص وتتلق وتدق الدفوف ، وتردد الأناشيد سقيمة الوزن ، هابطة المعاني .

انهم يريدون منه أن يقول ما قال بعض مدعى الصوفية عن محمد الموهوم : ان محمدا هو الأول والآخر والظاهر والباطن . . . وأن يقول ما يقول نفثة المولد ، وشعراء الربابة ! : لولاه ما كان ملك الله منتظما !!

أو ما قاله الأفاك الوضاع الذي افترى : ان الله قال لمحمد لولاه ما خلقت الأفلاك !!

أو ما قاله البوصيري :

فان من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

واذا كان علم اللوح والقلم به علم محمد فماذا بقي لله ؟!

واذا كان علم اللوح والقلم بعض علم محمد فماذا بقي لله ؟!

يريدون منه أن يؤمن ، وأن يحمل الناس على الايمان بأن محمدا حي في قبره لم يموت ، وأن أعمالنا تعرض عليه ، والذين يريدون حمله على هذا لا يعرفون عما جاء به محمد شيئا ، مدى معرفتهم أنه خلق من نور ، وإذا مشى يسيقه النور ، وإذا تكلم اخجل البدور ، وأجمل منه لم تلد النساء . . . وأن المصحف لا يجوز أن يمسه على غير طهاره !! أما عن نبوة محمد ، أما ماذا في المصحف من هدى ، أما الفضيلة والحق والحكمة فهم عنها عمون !!

بل انهم في كثير مما تعرفه الحياة عنهم لا يذكرون محمدا الا حين يرون « عرائس المولد » ومن ثم تسمع معهمة ودمدمة وأصواتا متشنجة بلهاء ! وقد يخيل إليك ان هذه صلوات وتسبيحات وما هي الا نفثات نفوس مريضة وعقول مخبولة .

فماذا نفعل لنكتب الحق ؟ أنجبين عن الهتاف الروحي الجميل بالحقيقة خشية هؤلاء المنذرين بالوعد والوعيد والعذاب الشديد ؟

اندهن كما يدهنون مخافة أن يعربد علينا الباطل ببهتانه وعدوانه ؟

ولقد جاءت الخوارق طائفة لنبي الاسلام فصدقها الناس ولكنه عليه الصلاة والسلام ابى لهم ان يصدقوها او يفهموها على غير حقيقتها ، ولو انه سكت عنها لحسبوا معجزة من المعجزات لم يعلق مثلها من قبل لأحد من المرسلين .

مات ابنه ابراهيم ، وانكسفت الشمس ساعة دفنه ، وتصايح المسلمون حول القبر : انها آية من آيات الله ان تنكسف الشمس لموت ابن محمد عليه الصلاة والسلام ، ولو كان صلوات الله عليه رسولا من الرسل الذين يتصيدون الخوارق لما كلفته هذه الخارقة الا ان يسكت عنها فلا يدعيها ولا ينكرها ، ولكنه لم ينس في ساعة حزنه امانة الهداية للمؤمنين بدينه ، وبادهم لساعتها مذكرا لهم بآيات الله وان الشمس والقمر آيتان له لا تخسفان لموت أحد ولا لمياته .

وما نحسب ان النبوة تعظم بكرامة قط اكرم لها من التوكيد بعد التوكيد في القرآن الكريم بتمحيص هذه الرسالة السماوية لهداية الضمائر والعقول غير مشروطة ولا مرتبطة بما قرر في الأوهام من قيام النبوة كلها على دعوى الخوارق والانباء بالغيبات(١) .

فحق القرآن هو الحق الأول ، فهو المهيمن على كل كتاب جاء به البشر ، فلنعتصم به ونحن نكتب أو ننقد ما كتب ليهب الله لنا الفرقان المبين .

ولنستمع الى قول الحق تبارك وتعالى :

١ - « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي باله والملائكة قبلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقي في السماء . ولن نؤمن لرقيك

أن من حق الصدق أن يأخذ مجاله في التعبير عنه بأعلى صوت وأوسع نطاق . وإن إيماننا بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم لأكرم وأعز من أن ندله لدعاة الأفك ، وكهنة الزور ، أو نرغمه على الاستخذاء بغية النجاة من سلاطة جاهلية جاحدة ، أو سفاهة وثنية حاقدة ، وأن الحق الذي يجعل من الحياة شيئا جميلا وعظيما لأسمى من أن نسمح للأمية الدينية أن تستمر وتسد ، أو أن ناذن لهذا الركام الأسود من الأساطير أن يزحف على أفق نور الحق ليهزم الاسلام من داخله ليبقى في النهاية مجرد مجموعة من الطقوس والخرافات .

ثم انى اتساءل : هل تحتاج مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم الى أن تدعمها بالأكاذيب حتى تؤيد أو ترد كل اكلية اختلقت ؟

ان الذي يزعم هذا كالذي يزعم ان الحق في حاجة الى الباطل ، وان الصدق محتاج - في تأييد الناس له - الى الكذب ، وان الايمان يريد سندا من الكفر ، وان الخير فقير الى الشر ، ليهب له في الحياة مكانته .

ان محمدا صلى الله عليه وسلم كالشمس لا تحتاج الى دليل يثبت انها بزغت سوى أن تراها وهي بازغة وحسب ، ومكانته أجل من أن نقترف الكذب لنثبت به أنه صدوق ، أن نوره يدل عليه ، ويثبت بلا برهان - سوى تالفه وتوهجه - انه حق يضيء ، فلنقل عنه ما قاله ربه الذي خلقه في أحسن تقويم ، لا نقول انه ما كان بدعا من الرسل ، وانه كان بشرا يوحى اليه .

هذا وليست الخوارق مما يغنى النبي في دعوة المكابر المفتون ، انه ليزعمها اذن ضربا من السحر أو السكر ولو فتح له الأنبياء بابا من السماء « وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون ، كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين ، ولو فتحتنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يمرجون لقالوا انما سكرت ابصارنا بل نحن قوم مسحورون » (الحجر ١١ - ١٥) .

حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » ( الاسراء ٩٠ - ٩٢ ) .

٢ - « ويقولون لولا انزل عليه آية من ربه فقل انما الغيب لله فانتظروا انى معكم من المنتظرين » ( يونس ٢٠ ) .

٣ - « قل لا اقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا اقول انى ملك ان اتبع الا ما يوحى الى قل هل يستوى الاعمى والبصير افلا تتفكرون » ( الانعام ٥٠ ) .

٤ - « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو » ( الانعام ٥٩ ) .

٥ - « قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مستنى السوء ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ( الاعراف ١٨٨ ) .

٦ - « قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادرى ما يفعل بى ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى الى وما انا الا نذير مبين » .  
( الاحقاف ٩ ) .

٧ - « قل انما انا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا » ( الكهف ١١٠ ) .

٨ - « وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ، ماكنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدى الى صراط مستقيم » ( الشورى ٥٢ ) .

٩ - واقرا ما اوردته البخارى عن انس : شج النبي صلى الله عليه وسلم يوم احد فقال « كيف يفلج قوم شجوا نبيهم » فنزلت « ليس لك من الامر شيء » (٢) نعم الامر لله وحده وما محمد الا انسان كباقي الناس يصح ويمرض ، يصيب في الحرب ويصاب بجوع ويشبع ، يفرح ويحزن ، الله وحده هو المنزه سبحانه وتعالى .

(٢) صحيح البخارى بشرح الكرماني ٤/١٦ ، والآية ١٢٨ من آل عمران .

١٠ - واسمع ما رواه احمد بثلاثة طرق (٣) ، وابن ماجه : عن موسى بن طلحة عن ابيه قال : مررت مع النبي صلى الله عليه وسلم في نخل المدينة ، فرأى اقواما في رؤوس النخل يلحقون النخل فقال : ما يصنع هؤلاء ؟ قال : ياخذون من الذكر فيحطون في الانثى يلحقون به ، فقال : ما اظن ذلك يعنى شيئا . فبلغهم فتركوه ونزلوا عنها ، فلم تحمل تلك السنة شيئا ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : انما هو ظن ظننته ، ان كان يعنى شيئا فاصنعوا ، فانما انا بشر مثلكم ، والظن يخطئ ويصيب ، ولكن ما قلت لكم قال الله عز وجل فلن اكتب على الله .

١١ - ولقد رفض الرسول صلى الله عليه وسلم ان يعظمه صحابته وقد ذكر الامام احمد في مسنده بثلاثة طرق عن ابن عباس عن عمر ان رسول الله قال : لا تطروني كما اطرت النصارى عيسى بن مريم فانما انا عبد الله ورسوله .

١٢ - واسمع ما رواه مالك والشيخان واصحاب السنن « قال صلى الله عليه وسلم : انما انا بشر وانكم تختصمون الى قلعل بعضكم ان يكون الحق بحجته من بعض فاحسب انه صادق فاقضى له على نحو ما اسمع . فمن قضيت له بحق مسلم فانما هي قطعة من النار فليأخذها او ليقتركها » .

فمن كان هكذا عاجزا بنفسه عن ادراك حقيقة ماوقع بين خصمين في زمنه ، وفي بلده ، وقد رأى اشخاصهما وسمع اقوالهما ، هو بلا شك اشد عجزا عن ادراك ماغات ، وما هو آت . الا ان يشاء الله .

وفقتنا الله الى الحق ، وهدانا الى قوله .

اصلان عبد السلام حسن

يونيو ١٩٨٧

(٣) مسند الامام احمد احاديث ارقام ١٢٦٥ ، ١٣٦٩ ، ١٤٠٠ .

## كيف ومتى كتبت السيرة

لما انتشر الاسلام ، ودخل الناس فيه أفواجا ، احتاجوا الى معرفة الاسلام منذ بدأ ، وأحوال الدعوة وتطورها ، وجهاد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في نشرها ، وما صاحب ذلك من احتكاك بالمشركيين ، وهجرات للمسلمين ، ومواقع حربية وغزوات وغير ذلك .

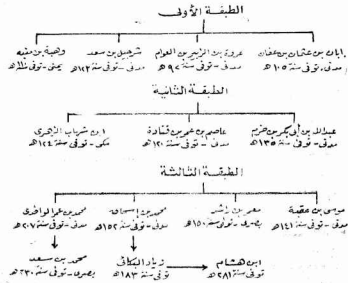
فكان الداخلون في الاسلام حديثا يسألون من سبقهم ، وكانت تعتمد لذلك مجالس خاصة تتصل بالسيرة النبوية والدعوة المحمدية والغزوات ، وأمور الدين والشريعة ، من قرآن وحديث وتشريع ، وكانت الاجابة على تلك الاسئلة تمثل اللبنة الأولى في علم السيرة .

ثم لما بدأ الصحابة والتابعون الاشتغال بتفسير القرآن وشرح الأحاديث النبوية والتشريعات لمن دخلوا في الدين من عرب وعجم ، احتاجوا الى دراسة أسباب النزول وأماكن النزول ، وظروف وأسباب

ومناسبات الأحاديث النبوية فاضاف ذلك لنبات اخرى في علم السيرة .

كما ان العرب في جاهليتهم كان لهم تاريخ سجلوا فيه ايامهم المشهورة في القصص ودواوين الشعر ، وكذلك الأمم غير العربية التي دخلت الاسلام كان لهم تاريخهم الذي كانوا يعتزون به ، فحفظ ذلك المسلمين الى ان يكون لهم تاريخهم الاسلامي الذي يبدا بنبي الاسلام صلى الله عليه وسلم .

وفي النصف الثاني من القرن الأول الهجري بدأت طائفة من كبار العلماء كلهم من التابعين تلقوا معارفهم من الصحابة مباشرة - في تدوين السيرة - وتتابع على تدوينها طبقات متوالية كل منها يمثل حلقة خاصة ، الى ان انتهت الى ابن اسحاق . ونستعين من المرحوم الأستاذ أحمد أمين الرسم التوضيحي الذي يبين تلك الطبقات ، كما يلي :



وهكذا أخذ زياد البكائي عن ابن اسحاق ، وأخذ ابن هشام عن البكائي ، فكانت السيرة المشهورة التي بين ايدينا الآن « سيرة ابن هشام » وهي في الحقيقة سيرة ابن اسحاق اختصرها ومذهب ابن هشام فنسبت اليه .

وحين بدأ محمد بن اسحاق تدوين كتابه لم يبدأ من فراغ ، وإنما اعتمد على مدونات سبقتة ، كما ان الذين أتوا بعد ابن اسحاق اعتمدوا كذلك على ما كتب قبلهم ، علاوة على ما اضافوه الى السيرة من اخبار قراؤها أو سمعوها من غيرهم .

ومن الواجب أن نذكر ان ابن اسحاق قد سما بكتابه على جميع الذين سبقوه ، وجذب على الدوام انظار المؤرخين المتأخرين ، ويعد كتابه في رأى كثير من الباحثين ثمرة لتفكير أبعد أفقا ، وأوسع مجالاً من تفكير سابقيه ومعاصريه ، فهو لم يكن أول من عرض فترات حياة الرسول صلى الله عليه وسلم باتساق في كتابه فحسب ، بل وسع أفق هذه السيرة فجعلها تاريخاً للرسالة الالهية عامة ، فادخل فيها تاريخ الانبياء المتقدمين (١) قبل محمد صلى الله عليه وسلم .

هذا وقد كانت السيرة في بداية أمرها مرتبطة بالحديث ، والذي لا يمكن اغفاله ان تخوف الطبقة الأولى من الصحابة وقصورهم عن تدوين الأحاديث مهما كانت أسبابها - قد يسر للعناصر الفاسدة التي اندست في صفوف المسلمين من اليهود والنصارى وغيرهما من المشركين أو الذين لم يدخل الاسلام قلوبهم - قد يسر لهم الدس والكنب على الرسول ، وادخال الكثير من القصص ، واخبار الأمم السابقة وبخاصة اليهودية حسبيماً روتها التوراه وشروحها ، و اضافوا قسماً من تلك الأساطير الى تفسير القرآن ، من بين أولئك

(١) ادب التاريخ منذ العرب - د. مفت محمد الشرقاوى ٢٥٦/١  
وفاسات في حضارة الاسلام - د. هاملتن جيب ترجمة د. احسان مباس  
ود. محمد يوسف نجم ود. محمود زايد ص ١٤٨ .

كما أن بعض الكتاب والقصاص - بحسن نية - ولحبهم الشديد لرسول الله صلى الله عليه وسلم أضافوا أخبارا أوجت بها أخيلتهم للمبالغة في تقديم الرسول - وال بيته طائنين أن في ذلك نوعا من المديح الذي سيجوز عنه خير الجزاء .

فلقد احتوت بعض الكتب وبخاصة المتأخرة منها : روايات كثيرة في سياق ذكر وجوده ونوره قبل نشأة الإنسان الأولى في سياق ذكر نسبه وحمله ولادته وبشائره دون أن يكون لها أصل من قرآن . أو سند من حديث صحيح أو دعامة من منطق بل وكثير منه لم يريد في الروايات المدونة في كتب السيرة القديمة حيث يبدو منها أن غلاة المسلمين لم يكتفوا بالوقوف عند الإنسان الكامل في النبي صلى الله عليه وسلم الذي يتجلى في التميز في عظم الخلق ، وصفاء النفس ، وكبر القلب ، وقوة الإيمان ، والفناء في الله ، والمهمة العظمى التي اضطلع بها : ورواوا أنه لا بد أن يكون من لوازم نبوته واصطفائه أن تكون تمة مقدمات وبشائر ، وأن كان منها ما يخرج النبي عن النطاق الطبيعي للبشر أولا ، وللسائر الأنبياء ثانيا ، ويدخله في نطاق اللاهوتية أو في معناها ، وذلك حين يصنونه بالأب الأكبر لجميع الموجودات ، وأنه خص بالاستخراج من ظهر آدم قبل نفع الروح فيه ، لأنه هو المقصود من خلق النوع الإنساني . وأن جميع الكائنات من عرش ولوح وقلم وكرسی وسعوات وأرضين وأنس ورجن وشمس وقمر وملائكة وجنة ونار قد خلقت من نوره ، وأن أحد أجساده الياس كان يسمع تلييته بالحج وهو في صلبه ، وأنه كان يعلم بامر نبوته مذ كان في عالم القيب وبعد خلقة ، ويرى علام ذلك في الشجر والحجر وهي تسلم عليه ، وأن أمه سمعت بشائر نبوته ، ورات اعلامها حين وضعت في آخر ذلك . ومن الغريب ومن الطريف معا أن يركز مثل هذا الغلو في اعتقاد صفات النبوة هو الذي حمل طائفة من العرب على جحد نبوته والوقوف منه موقف المذكر المستغرب ، تخيلوا أن النبي لابد أن يكون فوق البشرية في القدرة على الخوارق ومعرفة الغيب ، وتسخير الأكوان ، والخلود ، والصعود إلى السماء واستنزال الملأكة ، وانفتاح كنوز الأرض له . فلما راوه بشسرا مثلهم يقرر بلسان القرآن مثليته البشرية ، ويرد عليهم حين يطلبون

عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، وهب بن منبه ، وأمثالهم ممن اتخذوا القصص مهنة لهم يخدعون الجماهير السذج بأساطيرهم ليتبذروا أموالهم ، ويتملقوا بذلك إلى الحكام ليستندوا عطفهم وأعطياتهم ، وقد ظهرت طلائع هذه المهنة تميم الدار في المعاصر للخليفة عمر بن الخطاب ، وقد استأذنه في أن يقص على الناس فأبى عليه أولا ، وفي أخريات أيامه أذن له أن يقص على الناس مرة في الأسبوع . ولما جاء عثمان بن عفان أطلق له السراح فانطلق يحدث الناس في المسجد والمجمعات بما لذ وطاب بدون وأزع من دين أو رقابة من أحد ، ومما يشير إلى عدم تخرج هذه الطبقة من الكذابين والقصاصين أن « روح بن زيناغ » دخل على تميم الدار وهو ينفي لنفسه شعيرا فقال له : أما كان في هؤلاء من يكفيك ؟ قال بلى : ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : حامن امرئ مسلم ينفي لنفسه شعيرا ثم يعلقه عليه الا كتب له بكل حبة حسنة(٢٣) .

وحدث عبد الله بن سلام كما جاء في الجزء الأول من تاريخ الطبري عن بداية الخلق فقال : أن الله بدأ الخلق يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال الرواسي في الثلاثاء والأربعاء وخلق السموات في الخميس والجمعة ، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل فذلك الساعة التي تقوم فيها الساعة .

إلى كثير من أمثال هذه الأساطير التي دسها اليهود وغيرهم بين المسلمين وأصبحت بعد ذلك من جملة الأحاديث التي روتها الطبقة الثانية ونسبتها إلى الرسول ودونها المؤلفون في كتبهم بين الروايات هنا وهناك .

(٢٣) انظر السيرة النبوية - د. مروان محمد مصطفى شامين ، ود. مصطفى محمد السيد أبو عماره وضى الاسلام لأحمد أمين ٢٢٠/٢ والموسوعات في الآثار والأخبار - هاشم معروف الحسني ص ٢٢ .

هذه الخواص أنه ليس الا بشرا رسولا ، وأنه لا يعلم الغيب ، ولا يملك خزائن الله ، وأنه ليس ملكا ، وأنه معرض لجميع ما يتعرض له البشر مجبوا وجحدوا وردد القرآن موقفهم وندد به في آيات كثيرة ( ١٨٨ سور الأعراف ، ٤٩ يونس ، ٩٠ - ٩٤ الاسراء ، ٧ - ٨ الانبياء ، ٧ - ٩ الفرقان ) (٣) .

من كل ذلك يمكن ان نخلص الى ان مصادر التاريخ الاسلامي والمسيره تتركز في ثلاثة مصادر :

### المصدر الاول :

هو القرآن الكريم وهو مصدر لا يرقى اليه اى شك وقد حفظه الله تعالى كما بلغه رسوله ورتبه حفظا عظيما ، تمثل فيه المعجزة الربانية التي جاءت مصداقا لآية سور الحجر « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » وفيه صورة قوية مشرقة عن سيرة النبي العربي العظيم .

### المصدر الثاني :

أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وأصحابه حيث تحتوى على مادة تاريخية غير قليلة ، ولو ان نطلقها ضيق لانه منحصر في حقبة قصيرة وهى حياة الرسول وخلفائه الراشدين .

وهى لم تسلم كما سلم القرآن ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن كتابة شيء عنه غير القرآن ، وسار خلفاؤه الراشدون على سنته فتاديا من الاختلاط والليس بين القرآن وبين كلام النبي الذى ليس قرآنا (٤) ، فلم يكد يدون من أحاديث النبي شيء في حياته وفي عهد الخلفاء الراشدين الذى امتد الى السنة الأربعين للهجرة ،

(٣) تاريخ الجنس العربى - محمد عزه دروزه - ٤٥/٦ .

(٤) تراجم التحديث للقاسى س ٤٥ .

باستثناء شيء قليل حيث روى أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يدون بعض الأحاديث في صحيفة عرفت « بالصادقة » (٥) ، وأن عروة ابن الزبير كان يدون بعض الأحاديث التى كان يتلقاها من عمته أم المؤمنين عائشة ، وقد ظلت الأحاديث في الصدور ومتداولة على الألسنة قرابة مائة عام ثم بدىء بتدوينها في زمن عمر بن عبد العزيز ( ٩٩ - ١٠١ هـ ) وبأمره ، ثم اتسع هذا النطاق حتى بلغ ذروته في القرن الثانى والثالث والرابع حتى صسارت الأحاديث المدونة تعد بمئات الألوف .

ثم حدث الخلاف على الحكم والسلطان ، ثم اخذ يتفاقم ويتسع ، ونشأت نتيجة ذلك فرق وطوائف ، وشيع وأحزاب متنافسة متناحرة ، ثم تبع ذلك أو نجم عنه خلاف في تأويل كثير من نصوص القرآن ، وتطور واتسع حتى شمل كثيرا من المعانى والمبادئ ، وانقسم المختلفون بدورهم شيعا وفرقا وطوائف متناحرة متناكرة ، واندمج في هؤلاء وأولئك شعوبيون حادون على العرب والاسلام ، وحاولوا زيادة الخلاف والتناحر شدة ولهيبا ، وعدم كثير من المختلفين الى تأييد اراتهم وأهوائهم بأحاديث نبوية وصحابية ، وكان ذلك قبل جمع الحديث في القرن الثانى للهجرة مع ان كثيرا منه يستدعى التوقف ويبحث على الشك ، ويتناقض مع نصوص القرآن ، والثابت من الحديث والمترار من الروايات والوقائع ثم من الحق والعقل والمنطق ، بل وقد ثبت لعلماء الحديث كذب كثير منه فادى ذلك الى تشويه حوادث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والانصار ، وببللة الأفكار فيها .

وهكذا اختلط السمين من الحديث بالغث ، والضعيف بالمصحح ، والصادق بالموضوع : حين التدوين ، وكان ذلك من الكوارث على الاسلام والأمة الاسلامية وتاريخ العرب والاسلام معا .

(٥) كتاب السنة للسبامى س ٧٣ .

### المصدر الثالث :

دورا أيضا ، حيث يلمس القارئ آثار الحزبية والهوى ، وقصد التشويش والتشويه والتسوية والتفاخر والتباهى الخ .. ومنها ما روى ودون عن هوى ، ومنها ما روى وكتب كنفل أمين .

ولقد صنع ابن هشام وابن سعد والبلاذرى وابن قتيبة والطبرى من الذين وصلت اليها كتبهم والذين رواوا كثيرا من تاريخ ما قبل البعثة ثم من سيرة النبي وخلفائه الراشدين والدولة الاموية خيرا كثيرا في اثباتهم روايات عديدة في موضوع واحد كنقله أميين مع تنبيه بعضهم أحيانا الى عدم تصديقهم لبعضها أو شكهم في بعضها ومع سكوتهم عن بعضها : فكانت من تلك الروايات مادة تاريخية هامة مهما كانت مشوشة فإن في الإمكان استخلاص حقائق كثيرة منها وتمييز غثها من سميتها وكاذبها من صادقها بالمقارنة والتحريص .

وبعد فقد لاحظنا أثناء قراءة كتب السيرة القديمة منها والحديثة بعض الأخبار التي تحتاج الى وقفة لتمحيصها ، وسوف نذكر بعض هذه الأخبار والروايات محاولين - إن شاء الله ويتوفيقه - أن نوضحها أو على الأقل نلقى عليها بعض الضوء .

ويأتي بعد القرآن والحديث كمصدر من مصادر التاريخ الاسلامي روايات الرواة ، التي كانت تعنعن كالحديث راويا عن راو ، وإن لم تزل تمحيصا مثله . غير أن معظم الروايات التي تروى أحداث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، والدولة الاموية والدولة العباسية ظلت محفوظة في الصدور متداولة على اللسان الى القرن الثاني للهجرة .

وقد قلنا معظم الروايات لأن هناك روايات تفيد أن بعض الكتاب قد كتبوا أحاديث وأخبارا عن الصدر الاسلامي الأول كما سبق أن أوضحنا ، غير أنه لم يصل اليها من هذه المدونات كاملة إلا كتاب ابن اسحاق الذي هذب ابن هشام . ومغازي الواقدي على شك في امره ، وطبقات ابن سعد ، وقد أدرك الطبرى واليعقوبى والدينورى وغيرهم من مؤرخي القرنين الثالث والرابع شيئا مما كتبه الكتاب الأولون وحفظوه لنا ، ويمكن أن يضاف الى هذه القائمة البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ هـ الذي وصل اليها كتابه القيم « فتوح البلدان » وابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٧٦ هـ الذي وصل اليها كتابه « الامامة والسياسة » والذي دون فيه تاريخ الخلفاء الراشدين ، كما وصل اليها كتاب « الخراج » للإمام أبو يوسف المتوفى أواخر القرن الثاني ، وكذلك كتاب « الأموال » للإمام أبو عبيد القاسم المتوفى سنة ٢٢٤ هـ وقد احتوى كتاباهما كثيرا من روايات السيرة النبوية والخلفاء الراشدين .

ولقد لعبت الطبيعة البشرية دورا في ما دونه المدونون القدماء أو رواه الرواة من روايات : حيث يلمس الناظر فيها كثيرا من المبالغات والمفارقات والخيال والتناقض والاختلاط والتعدد في الأحداث والأسماء والوقائع والأزمنة والأمكنة ، وخاصة في ما يعود الى ما قبل البعثة وروى أو دون كمقدمة للسيرة النبوية ، كما لعبت الأمواء الناجمة من الخلاف والشقاق والمنافسات في الصدر الاسلامي الأول ثم في زمن الدولة الاموية والخطر الأول من الدولة العباسية

## رضاعة الرسول صلى الله عليه وسلم

تذكر كتب السيرة في موضوع رضاعة النبي صلى الله عليه وسلم أن المراضع التي وفدت إلى مكة زهدت في محمد الطفل اليتيم لفقره ، ولم تأخذه حليمة السعدية إلا لأنها لم تجد غيره ، وتأخرت عن زميلاتها ، فخافت أن رجعت بدون طفل أن يعيرنها \* ويذكر نفس الرواة أن محمداً كان حينئذ في كفالة جده عبد المطلب \* ثم ينكرون عن عبد المطلب أنه :

١ - تولى عبد المطلب بن هاشم السقاية بعد عمه المطلب ، وهي من الأعمال الشرفية التي يتكلف القائم بها الكثير ، فأقامها للناس ، وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمون قبله لقومهم من أمرهم . وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آيائه ، وأحبه قومه وعظم

خطره ( شأنه ) فيهم فكان الزعيم الروحي والسياسي ، وسيد مكة ، وكان يمارس أمور السلطة العليا فيها ، وكان له شرف انقاذ وطنه من غزو الأحباش<sup>(١)</sup> .

٢ - أنه افتدى ولده عبد الله قبل مولد محمد بعام بمائة من الإبل قدمها قربانا ، فاكل منها الناس في الوادي ، والوحوش في الجبال . وكان الجمل الواحد يساوي حينئذ ٢٥ أوقية من الذهب<sup>(٢)</sup> .

٣ - في عام الذيل كان له العديد من الإبل ترعى في ضواحي مكة ، فاستولى جنود أبرهة الحبشي على مائتين منها حين قدم غازيا راغبا في هدم الكعبة ، وان عبد المطلب ذهب اليه وجرى بينهما حوار استرد على أثره عبد المطلب إبله ثم قدمها هديا للكعبة .

٤ - قال المؤرخ « برتش سميث » في كتابه ( القرابة والزواج عند العرب ص ٦٠ )<sup>(٣)</sup> أن عبد المطلب لم يكن فقيرا وهو رأس بني هاشم ، ويدلل على ما يقول بسند مخطوط مسجل به دين لعبد المطلب على رجل من صنعاء قيمته ألف درهم فضة ، وقد عثر على هذا السند في بيت مال المأمون العباسي سنة ٨١٢ م ، ويقول المؤرخ المذكور أن الرجل الذي يقترض دراهم الفضة بالآلوف خارج وطنه لا يكون فقيرا .

٥ - يقول الرواة أن عبد المطلب كان يملك الآفا من الإبل ، وأن المائتي بعير التي استولى الأحباش عليها لا تمثل إلا جزءا يسيرا من إبله . كما كانت قوافله التجارية ترحل إلى الشام وإلى اليمن

(١) تاريخ العرب المعاصر - تأليف المستشرق ل.أ. سيدو ترجمة عادل زعيتر ص ٥٨ .

(٢) دراسات في السيرة النبوية - د. حسين مؤنس ص ١٨ .

(٣) عبد المطلب جد الرسول - د. علي حسني الخربوطي . سلسلة أفرا صفحات ٢٨ و ٥٣ و ١٠٩ و ١٢٦ .

يقودها أبناؤه ، وكان بعضهم على جانب كبير من الثراء كالعباس والزبير وأبى لهب وحجسل الذي كان يلقب بالغدياق لكثرة خيريه وسعة ماله .

٦ - جاء في السيرة الشامية عن ابن اسحاق أن أمه السعدية لما قدمت به مكة أضلها في الناس وهي مقبلة إلى أهلها ، فالتفتته فلم تجده ، فالتت عبد المطلب فأخبرته ، فنقض عبد المطلب للبحث عنه ومعه ورقة بن نوفل حتى وجداه بوادي تهامة تحت شجرة ، وفرح عبد المطلب وأركبه فرسه ودخل به مكة ، ونذر عشرين جزورا وذبح الشياه والبقر وأطعم أهل مكة من ذلك<sup>(٤)</sup> . وما يفعل ذلك رجل فقيرا !

٧ - يذكرون أيضا أن عبد المطلب لما مات أعظمت قريش موته ، وغسل بالماء والسدر ، وطرح عليه المسك حتى ستره ، ولف في حلتين من حلل اليمن قيمتها ألف مثقال من الذهب<sup>(٥)</sup> .

٨ - يذكرون أيضا أن الطفل محمد وقت أخذ حليمة له كان مدرجا ( ملفرفا ) في ثوب صوف أبيض ، وتحتة حريزة خضراء . وليس هذا شأن طفل فقير ، إنما هذا ما يليق بطفل يكفله مثل هذا الرجل العظيم سيد مكة<sup>(٦)</sup> .

ومع ذلك يتسج خيال القصاصين أن الطفل كان فقيرا زهدته المراضع ، ليستدروا علف السامعين ، والنبي عليه الصلاة والسلام في غنى عن ذلك .

(٤) سبل الهدى والرشاد ( السيرة الشامية ) ١/٢٧٥ .

(٥) البقوي ١٠/٢ - ١٢ .

(٦) انظر سيرة ابن هشام ٥٠/١ و ١١٢ و ١٤٨ وتاريخ الطبري ٤

١٥٨/٢ وسيرة النبي العربي - أحمد التايي ١٨/١ والروايات الدلنية للسلطاني

٢٨/١ والآثار الحمديّة من المواهب - يوسف بن اسماعيل البتاني ص ٢٩ .

وإذا صدقت الرواية التي تنقل عن حليلة السعدية ، فإن سبب الزهد لابد أن يكون البيت وليس الفقر ، لأن منزلة اليتامى في المجتمع الجاهلي لم تكن بالمنزلة الكريمة ، فقد كان الفقراء منهم يذلون ويقهرون ، وكان الأغنياء منهم يضطهدون ويظلمون .

والقرآن الكريم ، والأحاديث النبوية شواهدان على ذلك . فالقرآن يتحدث عن الجاهليين فيقول « كلا بل لا تكرموا اليتيم » ( الفجر ١٧ ) ، ويقول « فذلك الذي يدع اليتيم » ( الماعون ٢ ) ويتحدث إلى محمد عن محمد اليتيم وعن الموقف الذي يجب أن يتخذه محمد من اليتامى فيقول « ألم يجدك يتيما فأوى » ( الضحى ٦ ) ، ويقول « فاما اليتيم فلا تقهر » ( الضحى ٩ ) .

نعم لم تكن منزلة اليتامى في المجتمع الجاهلي بالمنزلة الكريمة ، يستوى في ذلك الأغنياء والفقراء والذكور والإناث . ولما كان الإسلام دين العدل والرحمة فقد وقف القرآن إلى جانب اليتامى . وقف إلى جانبهم فجعل لهم حقا في الغنائم ، ونصيبا من أموال الأغنياء . ومضى القرآن في الرصاية بهم إلى الحد الذي جعل الناس يذهبون إلى أنه كاد أن يورثهم ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه واكسبوا » وقالوا لهم قولا معروفا . وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليقولا قولاً سديداً » ( النساء ٨ و ٩ ) . والقرآن حلىء بالآيات التي تأمر بالبر باليتامى وعدم اضطهادهم بشكل يوضح مدى الظلم الذي كان يقع على اليتامى (١) انظر الآيات : ١٧٧ و ٢١٥ من البقرة و ٣ و ٦ و ١٠ و ٣٦ و ١٣٧ من النساء و ١٥٢ من الأنعام و ٤١ من الأنفال و ٧ من الحشر و ٨ من الإنسان .

وقد جرت عادة المؤرخين أن يبالغوا في تصوير سوء الظروف التي أحاطت بمحمد صلى الله عليه وسلم في طفولته وصباه ،

(٧) محمد والقرى الصادقة - د. محمد أحمد خلف الله ص ١٦ .

**المسروء** فقيرا محتاجا ، وما كان الرسول عليه الصلاة والسلام في يوم من أيام حياته فقيرا ولا محتاجا ، وآيات سورة الضحى تصور أحواله في طفولته وصباه وشبابه الباكر فيقول الله سبحانه وتعالى « ألم يجدك يتيما فأوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى » أي أنه كان يتيما فأواه جده ثم عمه ، ووجدك ضالا فهداه وحماه من الضلال والموبقات وأعداه للرسالة الكريمة ، ووجدك عائلا فأغناه بالتجارة قبل البعثة أولا ثم بما أكرمه من النبوة والرسالة بعدها .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في شبابه وقبل زواجه من السيدة خديجة رضى الله عنها تاجرا ناجحا ميسور الحال ، ولهذا عهدت إليه في تولي تجارتها ، فزاد في هذه التجارة بأمانته وخبرته ، وبعد زواجه منها لم يعيش على مالها وإنما ظل يعمل في التجارة على طريقة كبار المكين ، وكلام السيدة خديجة رضى الله عنها له بعد أن نزل عليه الوحى خير شاهد على ذلك فقد قالت له : انك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق (٨) ، ومعنى هذا أنه كان رجلا ميسور الحال : لديه ما يحمل به عبء الكل ، ويعطى المعدوم ، ويعين على نوائب الحق ، ولو كان الرسول ينفق كل هذا من مالها كما يتصور بعض الناس من أنه صلى الله عليه وسلم كان يعيش بعد زواجه من خديجة على مالها ، لما قالت له خديجة ذلك ، وأين إذن فضله لو كان يقوم بذلك كله من مال زوجته ، وفي هذه الحالة كان من الممكن أن تقول له على سبيل التلطف : اننا نصل الرحم ، ونحمل الكل ، ونكسب المعدوم ، ونفقر الضيف وتعين على نوائب الحق ، فاما وقد قالت ذلك مخاطبة ذاك لشخصه فلا شك في أن ذلك كله كان من ماله لا من مال خديجة .

وغريب أن الذين أرخوا للرسول عليه الصلاة والسلام لم يفتنوا إلى هذا المعنى وراء كلام السيدة خديجة رضى الله عنها .

(٨) رواه البخاري عن يحيى بن بكير ، ورواه مسلم عن محمد بن رافع كلاما عن عبد الرزاق .

لقد كان محمد قبل زواجه وبعده رجلاً ميسرراً الحال ، ورجلاً تاجراً عارفاً بشئون التجارة ، فقد روى البلاذري أن خديجة عندما وجهت محمداً بمالها إلى الشام عرفت البركة والنماء في مالها على يده ، فإذا كان هذا ثمرة عمله في مال زوجته فلا شك أنه كذلك كان ينمي ماله وينفق منه في وجوه الخير(٩) .

اليتيم إذا وليس الفقر هو الذي جعل المراضع يترددن في الإقدام على أخذ الطفل محمد - إن صح ذلك - لاعتقادهن بقلة الجزاء نظير إرضاعه ، وخاصة وعبد المطلب كان شيخاً طاعناً قريب ثيابه ، فمن يضمن لبن الجزاء بعد ذهابه ، وفكرة اضطهاد اليتامي لديهم كما أوضحنا ، كما أنه يوم في مكة ، ويوم في اليمن ، ويوم في الشام ، ومن يدرى فقد يتصرم أجله ويصبح حفيده عبثاً على من تأخذه .

## رواية شق الصدر

كان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد لهم ولد يلتمسون له مرضعة في غير قبيلتهم ليكون أنجب للولد ، وأصبح له ، وقد أخذت حليلة محمداً صلى الله عليه وسلم . ويروى رواية السيرة حديث حليلة قالت : فلما أخذته رجعت إلى رحلى فلما وضعت في حجرى أقبل ثدياى بما شاء الله من لبن ، فشرب حتى روى ، وعرضت عليه الأيسر فأباه ، وكانت تلك عادته بعد ، وشرب معه أخوه حتى روى ثم نام ، وما كنا ننام معه قبل ذلك ، فقام زوجى إلى شاربنا ( ناقتنا ذات اللبن القليل ) فإذا بها حافل ( أى ممتلئة الضرع من اللبن ) فحلب منها ما شرب وشربت حتى ارتوينا وشبعنا ، فبتنا بخير ليلة . يقول صاحبى حين أصبحنا : تعلمى والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة . فقلت : والله انى لارجو ذلك . ثم خرجنا وركبت اتانى

(٩) دراسات في السيرة النبوية - د. حسين مؤنس ص ٢٠ .

رھط ثلاثة بيد اھدھم ابريق فضة وفي الآخر طست من زمردة خضراء  
فاخذوني وانطلقوا بی الى ذروة الجبل فاجتمعوني على الجبل  
اضجاعا لطيفا ۰۰ الخ ۰۰

وفي رواية ثالثة عنه صلى الله عليه وسلم « فبينما انا مع أخ  
لی خلف بيوتنا ترعى بهما لنا ، اثنى رجلان عليهما ثياب بيض  
بيد اھدھما طست من ذهب مملوءة ثلجا فاخذاني فشقا بطنى ثم  
استخرجا قلبی فشقا فاستخرجا منه عقلة سوداء فطرحاها ، وقيل :  
هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله ۰

ورواية رابعة عنه أيضا « كنت مسترضعا في بنى سعد فبينما  
انا ذات يوم منتبها من اھلى في بطن واد مع اتراب من الصبيان اذ  
اتى رھط من ثلاثة معهم طست من ذهب ملان ثلجا ، فاخذوني من  
بين اصحابی ، فخرج اصحابی هربا حتى اتوا على شفير الوادي ،  
ثم اقبلوا على الرھط فقالوا : ما اريكُم الى هذا الغلام ؟ فانه ليس  
منا ۰ هذا ابن سيد قريش ، وهو مرتضع فينا ، يتيم ليس له أب ،  
فما يرد عليكم أن يفيدكم قتله ، وماذا تصيبون من ذلك ؟ فان كنتم  
لا بد قاتلوه فاخذاروا منا من شدتم فلياتكم مكانه فاقتلوه ودعوا هذا  
الغلام فانه يتيم ، فلما رأى الصبيان ان القوم لا يجيبون جوابا  
انطلقوا هربا مسرعين الى الهی يؤذنونهم ويستصرخونهم على  
القوم ، فعمد اھدھم الى فاضجعتی على الارض اضجاعا لطيفا ،  
ثم شق بطنى مابين مفرق صدری الى منتهى عانتي وانا انظر اليه ،  
فلم اجد لذلك مسا ، واستخرج احشاء بطنى ثم غسلها بذلك الثلج  
فانعم غسلها ، ثم اعادها مكانها ، ثم قال الثاني منهم لصاحبه تنح  
عنه فتحاه عنی ، ثم ادخل يده في جوفی فاخرج قلبی وانا انظر اليه ،  
فصدعه ثم اخرج منه مضغة سوداء ثم رمى بها ۰

وفي رواية أخرى : ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال :  
انه عند ابتداء الوحى جاءنى جبريل وميكائيل فاخذني جبريل لحلاوة  
اللقا ، ثم شق عن قلبی فاستخرجه ثم استخرج منه ما شاء الله ان  
يستخرج ، ثم غسله في طست من ماء زمزم ، ثم اعاده الى مكانه ،  
ثم لامه ، ثم اكفاني كما يكفى الاناء ، ثم ختم في ظهري ۰

وحملته معي عليها فوائه لقطعت بالركب ما يقدر عليها شيء من  
حمرهن حتى ان صواحبي يقُلن لى : يا بنت أبى ذؤيب ويحك اربعى  
( ارفقى ) أليس هذا اثنك التي كنت خرجت عليها تخفضك طورا  
وترفعك أخرى ( اى انها كانت ضعيفة بطيئة ) فاقول لهن : بلى والله  
انها لھى ، فيقلن والله ان لها لثأنا ۰ ثم قدمنا منازل بنى سعد ،  
ولا أعلم أرضا من اراضى الله احبب منها ، فكانت غنمى تروح على  
حين قدمنا به شباعا لبنا فنحلب ونشرب ، حتى كان الحاضر في  
المنازل من قومنا يقول لرعاتهم ، ويلكم اسرحوا حيث يسرع راعى  
بنت أبى ذؤيب ، فتروح اغنامهم جيعا ما تبض بقطرة لبن وتروح  
غنمى شباعا لبنا ، فلم نزل نعرف من الله تعالى زيادة الخير حتى  
مضت سنتان ، وفصلته ( اى قطعت ) ۰

وفي اثناء وجوده صلى الله عليه وسلم في منازل بنى سعد روى  
الرواء حديث شق الصدر ، قالت حليلة « فوالله انه بعد مقدمنا به  
بانهر كان مع اخيه في بهم لنا خلف بيوتنا ، اذ اتى أخوه يشتد  
( يجرى ) فقال لى ولأبيه : ذلك أخى القرشى قد اخذه رجلان عليهما  
ثياب بيض فاضجعا فشقا بطنه فهما يسوطانه ( اى يدخلان ايديهما  
في بطنه ) ۰ فخرجت انا وأبوه نحوه ، فوجدناه قائما منتقا وجهه ،  
فالتزمته والتزمه أبوه ، فقلنا : مالك يا بنى ؟ فقال جاءنى رجلان  
عليهما ثياب بيض ، فقال اھدھما لصاحبه : اهو هو ؟ قال نعم ،  
فاقبلا يبتدراني ، فاخذاني فاضجعا ، فشقا بطنى ، فالتمسا فيه  
شيئا فوجداه فاخذاه وطرحاه ولا أدري ما هو ۰

هذه رواية ، وفي رواية أخرى ان ابن حليلة اتى يعدو فرعا  
وجبينه يرشح باكيا ينادى : يا أبت ويا أمه الحق أخى محمدا فما  
تلحقانه الا ميتا : قلت وما قصته ؟ قال : بينما نحن قيام اذ اتاه رجل  
فاخطفقه من وسطنا وعلا به ذروة الجبل ونحن ننظر اليه ، حتى  
شق صدره الى عانته ولا أدري ما فعل به ، فانطلقت انا وأبوه نسعى ،  
فاذا نحن به قاعدا على ذروة الجبل شاخصا ببصره الى السماء  
يبتسم ويضحك ، فاقبلت عليه وقيلته بين عينيه وقلت له : فذلك نفسى  
ما الذى دهاك ؟ قال : خيرا يا أماء ، بينما انا الساعة قائم اذا اثنى

**فوزنتهم** ، فقال دعه عنك قلو وزنته بأمته لوزنتهم ، واضاف ابن كثير بأن هذا اسناد جيد قوى .

كما ذكر أن أبا نعيم الحافظ روى في الدلائل من طريق عمر بن الصبح هذه القصة مطولة جدا ، ولكن نظرا لأن عمر بن الصبح هذا متروك كذاب متهم بالوضع فلم يذكر لفظ الحديث .

وقرأت كتاب « دلائل النبوة » للحافظ أبى نعيم بن عبد الله الاصبهاني المولود سنة ٢٢٠ هـ والمتوفى في ٢٠ محرم ٤٢٠ هـ ( الكتاب موجود بالهيئة العامة للكتاب ، برقم ١٧٥٩ حديث ) فلم أجده - وهذا امر عجيب - أن الحافظ أبا نعيم قد روى رواية من طريق عمر بن الصبح ، وإنما روى في ( ١/٧١ ) الروايات الآتية :

بعد الاستناد : أن أبا هريرة رضى الله عنه : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جرياً أن يسأله عن الذئ لا يسأله غيره فقال يارسول الله ما أول ما ابتدئت به من أمر النبوة فقال : أذ سألتني ، أنى في صدراء أمشي ابن عشر حجج إذا أنا برجلين فوق رأسي يقول أحدهما لصاحبه : أهو ؟ قال نعم . فإخذاني فلبصقاني بحلوة الفقا ، ثم شقاً بطنى ، فكان جبريل يختلف بالماء في طست من ذهب وكان ميكائيل يغسل جوفى . فقال أحدهما لصاحبه أفلق صدره ، فإذا صدرى فيما أرى مفلوقاً لا أجد له وجعاً ، ثم قال أشقى قلبه شقى قلبى فقال أخرج الغل والحسد منه فأخرج شبه العلقة ففنيده ثم قال أدخل الرفافة والرحمة في قلبه فادخل شيئاً كهيئة الفضة ، ثم أخرج ذروراً كان معه فذر عليه ، ثم نقر إبهامى ، ثم قال أغد ، فرجعت بما لم أغد به من رحمتى على الصغير ورتقى على الكبير .

وأورد أبو نعيم رواية أخرى : عن طريق أبى زر الغفارى ، قال : قلت يارسول الله كيف علمت أنك نبي وبما علمت حتى استيقنت قال : يا أباذر اتيانى وأنا ببطحاء مكة فوقع أحدهما بالأرض وكان الآخر بين السماء والأرض فقال أحدهما لصاحبه أهو ؟ قال هو هو نعم ، قال فزته برجل فوزنتى برجل فرجعته ، قال فزته بعشرة

وأورد ابن كثير في « البداية والنهاية » رواية أخرى (١) : أن رجلاً سأل النبي عن أول شأنه فقال صلى الله عليه وسلم : كانت حاضنتى من بنى سعد بن بكر ، فأنطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ، ولم تأخذ معنا زاداً ، فقلت يا أخى اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فأنطلق ومكثت عند إليهم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟ فقال : نعم ، فأقبلا يبتدراني ، فأخذاني فبطحاني للققا ، فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشسقاء فأخرجا منه علقتين سوداوين فقال أحدهما لصاحبه اتنتى بماء ثلج فغسل به جوفى ثم قال اتنتى بماء يرد فغسل قلبى ، ثم قال اتنتى بالسكينة فذرهما في قلبى ، ثم قال أحدهما لصاحبه خطه غخاله وخنم على قلبى بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه أجعله في كفه وأجعل ألفاً من أمته في كفه ، فإذا أنا أنظر الى الألف فرقتى أشفق أن يخر على بعضهم ، فقال لو أن أمته وزنت به مال بهم ، ثم انطلقا ، فتركاني وفرقت فرقا شديداً . ثم انطلقت الى أمى فأخبرتها بالذى لقيت فاشفققت أن يكون قد لبس بى فقالت أعينك بالله ، ثم رحلت بعيرا وحملتني على الرجل ، وركبت خلفى حتى بلغنا الى أمى فقالت : أدبت أمانتى وذمتى ، وحدنتها بالذى لقيت ، فلم ترعها ، وقالت انى رأيت خرج منى نور أضاء قصور الشام .

كما أورد ابن كثير أيضاً أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له أخبرنا عن نفسك قال : نعم ، أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى عليهما السلام ، ورات أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام ، واسترضعت في بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا في بهم لنا أتاني رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فأضجعاني فشقا بطنى ثم استخرجا قلبى فشسقاء فأخرجا منه علقة سوداء فالقياها . ثم غسل قلبى ويطنى بذلك الثلج ، حتى إذا ألقياها رداه كما كان ، ثم قال أحدهما لصاحبه زنه بعشرة من أمته فوزنتى بعشرة فوزنتهم ثم قال زنه بمائة من أمته فوزنتى بمائة فوزنتهم ، ثم قال زنه بالف من أمته فوزنتى بالف

(١) البداية والنهاية - ابن كثير ٢٧٥/٢ .

فوزنتى بعشرة فرجحتهم ، ثم قال فزته بمائة فوزنتى بمائة فرجحتهم  
ثم قال فزته بألف فوزنتى بألف فرجحتهم ، ثم جعلوا يتساقطون على  
فى كفة الميزان ، ثم قال أحدهما لصاحبه ، شق بطنه فشرق بطني  
فاخرج منه مغزم الشيطان وعلق الدم فطرحهما ، فقال أحدهما  
لصاحبه اغسل بطنه غسل الاناء واغسل قلبه غسل الملاء ، ثم قال  
أحدهما لصاحبه خط بطنه فخط بطني وجعل الخاتم بين كتفى كما  
هو الآن ، ووليا عنى فكانى أعين معاينه .

كما أورد أبو نعيم رواية ثالثة : عن أنس رضى الله عنه أن  
جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يلعب مع  
الغلمان فأخذه فصرعه فشق بطنه فاستخرجه ، ثم استخرج من قلبه  
علقة سوداء فقال هذا حظ الشيطان منه ثم غسل القلب فى طست من  
ذهب بماء زمزم ثم أعاده مكانه ثم لأمه . قال أنس فليد رأيت أثر  
المخيط فى صدره صلى الله عليه وسلم .

رجاء فى « دلائل النبوة » للبيهقى ( ١ / ٧٦ ) من حديث  
حليمة السعدية قالت : لم يزل الله تعالى يرينا البركة وتعرفها حتى  
بلغ سنتيه ( أى رسول الله ) فكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان ،  
فوالله ما بلغ سنتين حتى كان غلاما جفرا ( شديدا ) فقدما به على  
أمه ونحن أضن شئ به مما رأينا فيه من البركة ، فلما رآته أمه  
قلنا لها دعينا نرجع ببنيها هذه السنة الأخرى فانا نخشى عليه وباء  
مكة ، فوالله مازلنا بها حتى قالت نعم فسرحت معنا ، فاقمنا به  
شهرين أو ثلاثة ، فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة  
فى بهم ( صغار الغنم ) لنا ، جاءت أخته ذلك يشتد ، فقال ذلك  
أخى القرشى قد جاءه رجلان عليهما ثياب بيض ، فأضجعا ، فشقا  
بطنه فخرجت أنا وأبوه نشدت نحوه ، فنجداه قائما منتقعا لونه ،  
فأعنته أبوه فقال أى بنى ما شأنك ؟ فقال جاءنى رجلان عليهما  
ثياب بيض فأضجعاى فشقا بطنى ثم استخرجا منه شيئا وطرحاه ،  
ثم رداه كما كان ، فرجعنا به معنا . فقال أبوه يا حليمة لقد خشيت  
أن يكون ابنى قد أصيب فانطلق بنا نرده الى أهله قبل أن يظهر  
فيه ما نتخوف . قالت حليمة : فاحتملناه ، فلم ترع أمه الا به قد

لدمنا به عليها ، فقالت ما ردكما به ؟ فقد كنتما عليه حريصين !  
فللنا لها لا والله الا أن الله تعالى قد أبى عنا وقضينا الذى علينا ،  
لللنا نخشى الائلاف والأحداث نرده على أهله . قالت : ما ذاك  
بكما فأصددقانى شأنكما فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره فقالت :  
أخشيتما عليه الشيطان . كلا والله ما للشيطان عليه سبيل ، وانه  
لكائن لابنى هذا شأن . الخ .

كما أورد البيهقى رواية أخرى عن أنس سبق ذكرها .

ونذكر الطرطوبى فى تفسيره ، والترمذى فى كتاب التفسير رواية  
عن أنس أن النبى قال : فبينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ  
سمعت قائلا يقول أحد بين الثلاثة . فأتيت بطست من ذهب فيها  
ماء زمزم فشرح صدرى الى كذا وكذا . قال قتاده : قلت يعنى  
قلت لأنس ما يعنى ؟ قال الى أسفل بطني . قال : فاستخرج قلبى  
فغسل قلبى بماء زمزم ، ثم أعيد مكانه ثم حبس ايمانا وحكمة .

كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « جاءنى ملكان  
فى صورة طائر معهما ماء وثلج فشرح أحدهما صدرى وفتح الآخر  
بمنقاره فيه فغسله » .

كما أورد الألو فى « روح المعانى » ( ١٦٦ / ٢٠ ) والسيوطى  
فى الدر المنثور أن أبى هريرة قال : يارسول الله ما أول ما رايت من  
أمر النبوة فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا وقال  
لقد سألت أبى هريرة : أى لفى صحراء ابن عشرين سنة وأشهر اذا  
بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل أهو هو ؟ فاستقبلانى بوجه  
لم أره بأخلق قط ، وأرواح لم أجدما من خلق قط ، وثياب لم أجدما  
على أحد قط ، فأقبل الى يمشيان حتى اذا دنيا أخذ كل واحد منهما  
بعضدى لا أجد لأحدهما مسا . فقال أحدهما لصاحبه أضجعه ،  
فأضجعتى بلا قصر ولا هصر ، فقال أحدهما ألق صدره ، فهوى  
أحدهما الى صدرى فقلقه فيما أرى بلا دم . ولا وجع ، فقال له  
أخرج الغل والحسد فاخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نذها ، فقال له

أدخل الرافعة والرحمة ، فإذا مثل الذي أخرج شبه القضة ، ثم مرز  
إيهام رجلى اليمى وقال أغد واسلم فرجعت أغدو بها رافعة على  
الصغير ورحمة على الكبير .

وأورد ابن الأثير في « الكامل في التاريخ » رواية أخرى  
( ٧٢/١ ) يقول فيها : قال شداد بن أوس ، بينما نحن عند رسول  
الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ من بني عامر ، وهو ملك قومه  
وسيدهم ، شيخ كبير متوكئا على عصا ، فمثل قائما . وقال : يا ابن  
عبد المطلب أتى أنبئت أنك تزعم أنك رسول الله ، أرسلك بما أرسل  
به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء ، ألا وإنك فئت  
بعمظيم ، ألا وقد كانت الأنبياء من بني إسرائيل . وأنت ممن يعبد  
هذه الحجارة والأوثان ، ومالك والثيرة ؟ وإن لكل قول حقيقة ،  
فما حقيقة قولك ويدو شامك ؟ فأعجب النبي ( س ) بمساءلته ، ثم  
قال : يا أبا بني عامر اجلس ، فجلس ، فقال له النبي ( س ) إن  
حقيقة قلوى ويدو شامى : أتى دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى أخى  
عيسى ، وكنت بكر أمى . ودمعتنى كاشئ ما تحمل النساء ، ثم رأت  
في منامها أن الذى في بياضها نور ، قالت : فجلست أتبع بصرى النور  
وهو يسبق بصرى حتى أضاعت لى مشارق الأرض ومشاربها ، ثم  
أتها ولدتنى فنشأت ، فلما نشأت بعضت إلى الأوثان والشجر ، فكنت  
مسترضعا فى بنى سعد بن بكر ، فبينما أنا ذات يوم منتبذة من أهلى  
مع أتارب من الصبيان إذ أتانا ثلاثة رهط ، معهم طست من ذهب  
مملوءة ثلجا ، فأخذونى من بين أصحابى ، فخرج أصحابى هرابا  
حتى انتهبوا إلى شفير الوادى ، ثم أقبلوا على الرهط فقتلوا : ما  
أرىكم إلى هذا الغلام ؟ فإنه ليس له أب وما يرد عليكم قتله ؟ فلما  
رأى الصبيان الرهط لا يردون جوابا ، انطلقوا مسرعين إلى الحى  
يؤذنونهم بى ويستصرخونهم على القوم ، فعمد أحدهم فأضجعنى  
على الأرض أضجاعا لطيفا ، ثم شق ما بين مفرق صدرى إلى منتهى  
عائتى ، فانا انظر إليه لم أجد لذلك عسا ثم أخرج أحشاء بطنى  
فغسلها بالثلج فأنعم غسلها ، ثم أخرج قلبى فصدعته ثم أخرج منه  
مضغة سوداء غمرى بها ، قال بيده يمنه منه كانه يتناول شيئا فإذا  
بخاتم فى يده من نور يجار الناظرون دونه ، فختم به قلبى فامتلا

دورا ، وذلك نور النبوة والحكمة ، ثم أعاده مكانه فوجدت برد ذلك  
الخاتم فى قلبى دهورا ، ثم قال الثالث لصاحبه تنح فتنحى عني ،  
فامر يده ما بين مفرق صدرى إلى منتهى عائتى ، فالتصم ذلك الشق  
بأن الله تعالى . ثم أخذ بيدى فأنهضنى أنهاضا لطيفا ، ثم قال  
الأول الذى شق بطنى زنه بعشرة من أمته فوزنوني بهم فرجحتهم ،  
ثم قال زنه بمائة من أمته فوزنوني بهم فرجحتهم ، ثم قال زنه بألف  
من أمته فوزنوني بهم فرجحتهم ، ثم قال دعوه فلى وزنه بأمته كلهم  
لرجح بهم ، ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسى وما بين عيني ،  
ثم قالوا يا حبيب لم ترع أنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقر به  
عينك . قال : فبينما نحن كذلك إذ أتانا بالحق قد جاءوا بعدا فإبرهم ،  
وأن طئرى أمام الحى تهتف بأعلى صوتها وهى تقول : يا ضعيفاه ،  
قال : فانكبوا على يعنى الرهط ، وقبوا رأسى وما بين عيني ،  
وقالوا : حيدا أنت من ضعيف . ثم قالت طئرى يا وحيداه ، فانكبوا  
على ضموني إلى صدورهم وقبلوا ما بين عيني ، وقالوا حيدا أنت  
من وحيد ، وما أنت بوحيد أن الله معك . ثم قالت طئرى يا يتيماه  
استضعفت من بين أصحابك فقلت لأضعفك فانكبوا على ضموني  
إلى صدورهم وقبلوا ما بين عيني ، وقالوا حيدا أنت من يتيم ما  
أكبرك على الله لو تعلم ما يراد بك من الخير ، قال فوصلوا بى إلى  
شفير الوادى ، فلما بصرت بى طئرى قالت : يا بشى ألا أراك حيا  
بعد ؟ فجاءت حتى أنكبت على وضممتنى إلى صدرها فوالذى تسمى  
بيده أتى لى حجرها وقد ضمتنى إليها ، وإن بيدى فى يد بعضهم ،  
فجعلت التأت اليوم : ووطننت أن التوم بصرونتى يقول بعض القوم  
أن هذا الغلام أصابه لم أو طائف من الجن انطلقوا به إلى كاهننا  
حتى ينظر إليه يدأوبه ، فقلت ما هذا ؟ ليس بى شيء مما يذكر أن  
أرأيت سليمة وقزأدى صحيح ليس فى قلبه ؟ فقال أبى من الدضاع  
الأثرون كلامه صديحا ! أتى لأرجو أن لا يكون بابنى باس ، فأتفقوا  
هلى أن يذهبوا إلى الكاهن ، فذهبوا بى إليه ، فلما قصروا عليه  
أصتى قال : اسكتوا حتى أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم ،  
فلمصت عليه أمرى من أوله إلى آخره ، فلما سمع قلوى وثب إلى  
رهننى إلى صدره ، ثم نادى بأعلى صوته بالعرب : اقتلوا هذا

الغلام واقتلوني معه فواللات والعزى لئن تركتوه فادرك ليذلن دينكم ، ويخلفن امركم ، وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله قط ، فأنزرتني ظئري منه ، وقالت لأنت أجن وأعتة من ابني هذا ، فاطلب لنفسك من يقتلك فانا غير قاتليه ، ثم ردوني الى أهلي فاصبحت مفزعا مما فعل بي ، وأثر الشق مما بين صدرى الى عانتى كانه الشراك ، فذلك حقيقة قولى ، وبودى شامى يا أخا بنى عامر . فقال العامرى أشهد بالله الذى لا اله الا هو ان امرك حق .

نكتفى بهذا القدر من الأخبار والروايات التى وضّح فيها التباين والتناقض والاختلاف .

يقول المرحوم عبد الحميد جوده السحار - فى كتابه محمد رسول الله والذين معه ( مولد الرسول ٣١٢/٦ ) « انه لم يسرد هذه الأحداث فى السيرة لأنها ليست ذات اثر فى حياة الرسول ، فقبيلة هوازن التى رضع فيها لم تؤمن به الا بعد فتح مكة ، وبعد ان نشبت بين المسلمين وبين هوازن حرب حنين كادت الدائرة فيها تدور على المسلمين لولا ثبات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلو ان القبيلة كانت اسمعت بفضل بركته أيام كان يسترضع فى بني سعد لكان لمثل هذه الأحداث اثر بارز فى السيرة ، أما وان الله تبارك وتعالى قد كتب على نبيه الكفاح والجهاد والعمل والصبر ليبلغ رسالات ربه ، وليمكن لدينه فى الأرض فلم يعد لتلك الروايات مكان فى سيرة رجل نشر دين الله بالعرق والجد والعمل والقوة الحسنة .

ان الله قادر على ان يحدث بل بمولك رسوله الكريم ، وهو قادر على ان يغمر الأرض ببركته وان يملأها خيرا ، ولكن الله أراد ان يضرب رسوله المثل للناس ، وأن يعلمهم ان الأهداف الكبيرة لا يمكن الوصول اليها بالمخوارق والمعجزات بل بالعمل الجاد الذى يرد به وجه الله الكريم » ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ، انما أنت منذر ولكل قوم هاد .

ويقول السحار انه لم يشر الى شق الصدر أو البطن ، لا لاضطراب الروايات فحسب بل لأن الله ليس فى حاجة الى اجراء

عملية جراحية ليظهر قلب نبيه ويملاء حكمة ، وانه يعتقد أن كل ما جاء عن شق الصدر قد وضع بعد صدر الاسلام عندما أراد الشراح شرح الآية الكريمة « ألم نشرح لك صدرك » فقد بعد الشراح عن روح القرآن وروحانيته ، ولجأوا الى المنايات المحسوسة لتفسير معانى روحية سامية ، فابتدعوا روايات متنافرة لا يقبلها العقل ولا المنطق ، ولا الذوق السليم : فمن ذا الذى يصدق أن ملائكة قد رهبا ليظهرا قلب النبى صلى الله عليه وسلم فلا يعرفانه فيقول أحدهما : أمر هو ؟ فيقول الآخر نعم !! وكيف يريد منا واضعوا هذه الأحاديث أن تصدق أن الرسول قال مرة جاعنى رجلاً ، ومرة أخرى جاعنى سمران ، ومرة ثالثة جاعنى رهطاً من ثلاثة ! وكيف يريد واضعوا هذه الأحاديث أن تصدق أن الطفلاً صفاراً يقولون للملائكة .. فان كنتم لابد قاتلوه واختاروا هذا من شتم طيائسكم مكانه فاقتلوه .. يا الله ! أهؤلاء صبية يلعبون أم أتباع محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن آمنوا به وصدفوه !! ومضى وقعت حادثة شق الصدر أو البطن ؟ أوتعت فى أرض هوازن ؟ أو وقعت فى مكة قبل النبى ! وماذا كان التطهير ؟ بالثلج أو بماء زمزم ؟ ان هذه الحادثة لم تقع الا فى مخيلة واضعى هذه الأحاديث .

وتناول الأستاذ محمد لطفي جمعة فى كتابه « ثورة الاسلام وبطل الأنبياء » ( ص ٤٦٠ ) موضوع شق الصدر ، واستبعد خبرته وقال « ان معصداً عليه الصلاة والسلام لم يكن فى حاجة الى ابرصاص من هذا القبيل بعد أن تواترت الأدلة على صحة رسالته بما هو أعظم وأظهر » . ويقول أيضاً انه لا يتعرض لهذه القصة لتعدد الروايات بشأنها ، ويعتقد ان حظها كمثل بقية القصص التى تصف خوارق العادات والارهاصات ، وقد نسبت اليه وعمره سنتان ، وقالوا أربع سنين وقالوا ست سنين ، وهذه القصص أعادت بعض المؤرخين الغربيين الحجة فى الادعاء بإصابة محمد بنوابة صبرع كما قال مرجليوث . ويضيف المؤلف « يريد بعض مؤرخى النبى صلى الله عليه وسلم من العرب أن يقتنعوا بأن ملائكة فى صورة رجال جاءوا يحملون أوانى من فضة وجوهر وشفره ليشقوا بها جسم محمد من الصدر الى العانة ليظهروا قلبه ، ونحن نأبى التصديق لا لأنه

مستحيل الوقوع بل لأن الله سبحانه وتعالى قادر على تطهير قلب نبيه بلا عملية جراحية تعمل على إيدى الملائكة في ظرف حرج بصورة مرعبة ، وحتى ينفوا انفراد محمد برواية ما جرى جعلوا أخاه من الرضاع يقول لأمه وهو يعدو فزعاً وجبينه يرشح بأكيا : يا أبت ويا أماه الحقاً أخى محمد فما تلحقانه إلا ميتا ، ويصف الأطفال الأبريق بأنه من قضة والطست من زمرد ، ولعل أطفال حليلة أو محمداً نفسه لم يروا في بؤبؤ بني سعد وفي هذه السن شيئا من الفضة أو الزمرد حتى يصفوها بالذقة وإنا لهم رؤى المعادن النفيسة والجواهر في البداية وهم يرفعون الغنم !!

ويختم المؤلف كلامه بأن المؤرخين العرب وكتاب السيرة كانوا لا يغفلون ما يكتبون بل يحشدون الأقوال حشداً كالإسلام فيسقط عليها العقابان والغريان والجوارح تنهشها وتتغذى بها وصدق من قال : « لكل ساقطة لاقطة » من أمثال عرجليوث وسبرنجر وميور .

وكتب الأستاذ محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه « غة السيرة ص ٥٦ » بعد رواية شق الصدر : ليست الحكمة من هذه الحادثة - والله أعلم - استئصال غدة الشر في جسم الرسول صلى الله عليه وسلم إذ لو كان الشر منبعه غدة في الجسم أو علاقة في بعض أعضائه لمكان أن يصبح الشرير خيرا بعملية جراحية ، ولكن يبدو أن الحكمة هي إعلان أمر الرسول وتأييده للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم رسالته ، أنها إذا عملية تطهير معنوي ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أسماء الناس وبصائرهم .

وأما كانت الحكمة فلا ينبغي - وقد ثبت الخبر بثبوت صحبهما - محاولة البحث عن مخارج لتفرض منها بهذا الحديث عن ظاهره وحقيقته إلى التأويل المعوجة البعيدة التكلفة وإن نجد من مبرر لمن يحاول هذا - رغم ثبوت الخبر وصحته - إلا ضعف الإيمان بالله عز وجل .

ينبغي أن نعلم بأن ميزان قبولنا للخبر إنما هو صدق الرواية وصحتها ، فإذا ثبت ذلك ثبوتاً بيناً فلا مناص من قبوله موضوعاً على الرأس ، وميزاننا لفهمه حينئذ دلالة اللغة العربية وأحكامها ، والأصل في الكلام الحقيقة ، ولو أنه جاز لكل باحث وقارئ أن يصرف الكلام عن حقيقته إلى مختلف الدلالات المجازية ليتخير من بينها ما يروق له لأفشلت قيمة اللغة وفقدت دلالتها وتاه الناس في مفاهيمها . وينهى الأستاذ البوطي كلامه بقوله : ثم قيم البحث عن التأويل ومحاولة استنكار الحقيقة ؟ أما أن ذلك لا يأتي إلا من ضعف الإيمان بالله ، وبالتالي من ضعف في اليقين بثبوت محمد صلى الله عليه وسلم وصدق رسالته ، وإلا فما أسهل اليقين بكل ما صح نقله سواء عرفت الحكمة والعلّة أم لم تعرف ( ثم يذكر المؤلف في الهامش أن الرواية جاءت في صحيح مسلم - وفعلنا وجدتها في صحيح مسلم في ١٤٧/١ بستة طرق بأرقام ٢٦٠ حتى ٢٦٥ - طبعة دار أحياء الكتب العربية - البابي الحلبي وشركاه ) وأضساف الأستاذ البوطي أنه ثبت في الصحيح تكرار حادثة شق الصدر أكثر من مرة .

وذكر الدكتور محمد الطليب النجار في كتابه « محمد رسول الله » : أنه يخص حادثة شق الصدر بالحديث لأنها كانت حدثاً هاماً في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم : إذ وجهت الأنظار إليه وهو في هذه السن المبكرة ، وقد جرت سنة الله مع أنبيائه أن يكرمهم بالمعجزات الخارقة قبل أن يبعثهم للناس حتى تتبين العقول بعد ذلك لقبول دعوتهم .

وتذكر الروايات التاريخية عن محمد وهو في الثالثة من عمره أنه كان مع أخيه من الرضاع في بهم خلف بيوتهم . الخ الرواية . وأن السيدة حليلة قد خشيت عليه أن يكون قد أصابه شيء فأرجعته إلى أمه آمنة وقصت عليها النبا العجيب . وتروى كتب السنن والصيرة وقوع هذه الحادثة للرسول ليلة الإسراء والمعراج ، فلقده رسول الامام أحمد والامام مسلم عن الرسول أنه قال : فرج سقف بطني وأنا بمكة فنزل جبريل ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ثم

جاء بطست من ذهب مملوء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدرى ثم أطبقه . ويختلف رأى العلماء في معنى شق الصدر فيذهب البعض منهم الى أنه شق حقيقى وأنه معجزة وقعت مرتين مرة قبل البعثة ومرة بعدها ، فأما قبل البعثة فلكى تكون أرهاصا للنبوة ، وبشيرا بما ينتظر لمحمد ( ص ) من مركز كبير ومقام كريم ، وأما بعد البعثة فلكى تكون معجزة تضاف الى المعجزات الأخرى التى كرم الله بها نبيه عليه الصلاة والسلام والتى تؤيد صدقه في دعواه .

ويذهب البعض الآخر الى أن حادث شق الصدر لم يقع حقيقة وإنما يقصد منه ما يفهم من قوله تعالى « ألم نشرح لك صدرك » فهى بذلك تكون إشارة الى تطهير الرسول ( ص ) من الشوائب التى توجد في نفوس الناس ، والسمو به الى درجة عالية من الطهارة النفسية والخلقية .

ويقول الدكتور محمد الطوبى النجار أن معنى يرون هذا الرأى من علماء هذا العصر الشيخ محمد الغزالي في كتابه « فقه السيرة » فلقد جاء فيه « ان بشرا ممتازا كمحمد لا تدعه العناية غرضاً للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من سائر الناس ، فإذا كانت للشهر هوجات تملأ الأفاق ، وكانت هناك قلوب تسرع الى التقاطها والتأثر بها فقلوب النبیین - يقول الله لها - لا تستقبل هذه التواتر الخبيثة ولا يهتز لها ، وبذلك يكون جهد المرسلين في متابعة الترقى لا في مقاومة التبدل وفى تطهير العامة المنكر لا في التطهير منه فقد عاهاهم من لوثائه . عن عبد الله بن مسعود قال رسول الله ( ما منكم من أحد الا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة قالوا : واياك يا رسول الله قال : وایای الا ان الله اعاننى فاسلم فلا يامرنى

الا بخير ) ثم يقول : ولعل أحاديث شق الصدر تشير الى هذه الحصانات التى أضفاها الله على محمد فجعله من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الانساني ، ومفاتيح الحياة الأرضية . وقد أورد الخازن في تفسير القصص الأولى - أيام الرضاعة - عند تفسيره لقول الله عز وجل « ألم نشرح لك صدرك » وشرح الصدر التى عنته الآيات ليس نتيجة جراحة يجريها ملك أو طبيب ، ويحسن أن تعرف

شيئاً عن أساليب الحقيقة والمجاز التى تقع في السنة . فمن عائشة أن بعض أزواج النبي قالن يارسول الله : أينما أسرع بك لحوقاً قال : أطولكم يداً . فأخذن قصبة يذرعهما ، فكانت سودة أطولهن يداً ، ولكن بعد موت زينب بنت جحش علمنا أن النبي إنما أراد طول اليد بالصدقة . ( انتهى كلام الشيخ الغزالي ) .

ويقول الدكتور الطوبى النجسار ان محمدا لم تدعه العناية للوساوس الصغيرة التى تناوش غيره من الناس ، وأنه لو لم يحم المكان بشق صدره ما كان أبداً غرضاً للوساوس ، بل لكان مثله كمثل جميع الرسل الذين اصطفاهم الله من عباده وطهر قلوبهم من الوسواس دون أن تشق صدورهم . وإنما أراد الله بهذه الحادثة الغريبة في نوعها أن تقرجه الأنظار والقلوب الى محمد في طفولته وبعد بعثته ، ويعرف الناس عنه ان عناية خاصة تحيط به وتميزه عن غيره ، وأن العناية التى أحيت الموتى وأبرأت الأكمة والأبرص على يدى المسيح عليه السلام هى العناية التى شقت صدر محمد ثم ارجعته في لحظات الى حالته الطبيعية . وهذا شأن المعجزات التى لا تخضع ولا ترتبط بالأسباب الطبيعية ، ولا ينبغي بائى حال من الأحوال أن تحمل القصة على أنها من الأساليب المجازية ، لأن سياق القصة والتعبير بلفظ ( جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض ) وكلمة ( فاضجعانى وشقا بطنى ) وفرار أخيه من الرضاعة فزعاً مما رأى ، ومجيء السيدة حليمة هى وزوجها بعد أن أخبرهما ولدهما بما أصاب أخاه محمداً ومقابلتهما لمحمد وهو ممقع لونه وحكايته للصبوة مرة ثانية بنفس هذه اللفاظ ، كل ذلك يجعل الحقيقة في هذه القصة واضحة لذى عينين ، ويبعد بها عن الأسلوب المجازى بعد المشرقين .

وإذا كان بعض المستشرقين ينكر هذه الحادثة لأنها تعتمد على رواية طفلين لا يصح الأخذ بقولهما فإننا نرى ان رواية الأطفال كثيراً ما تكون بعيدة عن الكذب والاختلاق أكثر من رواية الرجال ، ومع ذلك فقد تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذه الحادثة

بعد البعثة حينما كان يسترجع ذكريات الطفولة ويقتصبها على أصحابه ، وأخبر عن المرة الثانية التي وقعت له ليلة الاسراء والمعراج .

وإذا فالرأى الذى نرتضيه هو أن حادث شق الصدر قد وقع بطريقة حسية ، وأنه من الإفراضات التى تبشر بنبوة محمد تساماً عليه الخضراء قبل النبوة ، أن ليس هناك ما يمنع من ذلك ما دعنا نؤمن بالمعناية الإلهية التى تصاحب الأنبياء منذ فجر حياتهم ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

ثم نذكر أخيراً رأى الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله الذى أورده في كتابه « خاتم النبیین » يقول : ثقف وقفة قصيرة عند الأخبار الواردة في شق صدره عليه السلام . فقد رويت في ذلك أخبار بعضها في خبر قصير ، وبعضها في خبر طويل ، ولا تخلو من زيادة في بعض ، ونقص في أخرى وإن كان المعنى الأصلى متفقاً في الجميع . ولنذكر واحداً منها وهو ماروي وثبت في صحيح مسلم عن طريق حماد وابن سلمه عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ( ص ) أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه وصرعه وثقب عن قلبه فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء ، فقال هذا حظ الشيطان ثم غسله في طست ذهب بماء زمزم ثم لأمه ، ثم أعاده مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ( يعنى ظئره ) فقال أن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون . قال أنس وقد كنت أرى ذلك الخيط في صدره .

ويلاحظ الشيخ أبو زهرة في ذلك الخبر أمرين :

أولهما : أن الخبر فيه أنه غسله بماء زمزم . ويلاحظ أن الواقعة - أن صحت - كانت في البداية في مكان ناء عن زمزم ، وإذا كان من ماء مع جبريل فمن أين علم أنه من زمزم .

**ثانيهما :** أنه ذكر أنه كان يرى أثر المخيط في صدره عليه السلام ، وإذا صحت الواقعة فإن المعقول أن ذلك عمل ملك ، والملك لا يكرن لعمله أثر محسوس .

ونحن نرى أن الخيار بالنسبة للشق لا تخلو من اضطراب ، وعلى عرض أنها مسحية لا نقول أنها غير معقولة بل أننا نقبلها - أن صحت - ونحن الاضطراب في خبرها يجعلها ثقف غير رادين ولا مصدقين . ومهما يكن الأمر في الصحة فإن انغلام الطاهر كانت صبره أمور خارجه لعدم لم تكن تحدث للغلمان في سنه عادة .

وبعد فقد ذكرنا بعض الروايات التى وردت عن حادثة شق الصدر . وأوردنا رأيين لعالمين يؤيدان ويؤيدان حدوثها ، كما أوردنا رأيين لعالمين يعارضان القصة ويستبعدان حدوثها ، وأوردنا رأياً يفتي في الوسع ما يؤيد ولا يعارض ، ونحن التأييد وعدم التأييد أو إرفوف على الضياء ينصب على عمليه شق الصدر ، ولم أفرأ - في حدود سافتي المتواضعة - لأحد تناول موضوع وزن الطفل بألف من أمته ، سوى ما كتبه الشيخ جمال الدين محمد الأشعر اليمنى الذى اتفق مع الأستاذ محمد امزالي في اعتبار الأمر على سبيل المجاز وليس حسيماً (١) .

واجدنى مضطراً أن أعلق على ذلك لأن هنا سؤال يفرض نفسه : لماذا لم يرد أى خبر عن هؤلاء آلاف ، ولماذا سكت التاريخ عنهم ؟ ولماذا لم يتحدث أى واحد منهم أنه وضع مع ألف من قومه في حفة ميزان ؟ سكت في ضحاكته ليبنوا طفلاً في البساتن أو الرابعة أو الخامسة أو العاشرة ، وإن هذا الطفل وزنه ، وإذا افترضنا أن ما ذكره أحد العالمين المؤيدين من أن السادقة ليست مجازاً وإنما هي حقيقة حسية ، وأضحى لدى عينين ويبعد بها عن الأسلوب

(١) كتاب شرح العلامة جمال الدين محمد الأشعر اليمنى على كتاب بهجة المحافل وبهجة الآمال ، في تلخيص المجازات والسير والشمال للامام عبد الدين يحيى بن أبى بكر الصائغ ص ٤٤ .

المجازى بعد المشرقين ، فإن ألفا من الناس يوضعون في كفة ميزان لأمر عجيب ، عجيب لديهم أنفسهم ، وعجيب لمن شاهدوا عملية الوزن نفسها ، وكان من الطبعي - أن كانت قد حدثت - أن يكون لها دوى شديد ، وتأثير خطير في بنى سعد بصفة خاصة ، وفي قبيلة هوازن بصفة عامة ، وكان هذا كثيلا يجعل هؤلاء القوم من أسرع الناس الى تصديق الرسول يوم أعلن رسالته ، ولكن العكس قد حدث فقد كانت هوازن - كما هو ثابت تاريخيا بلا أدنى شك - من آخر القبائل ايمانا بمحمد ، وظلت في عنادها حتى بعد أن فتحت مكة وحتى بعد حرب حنين التي كانت الدائرة تدور فيها على المسلمين .

أطمس الله على السنة هؤلاء الألف وعلى سماعهم وعلى أبصارهم وعلى أفئدتهم فلم يهتموا بهذا الأمر العجيب ولم يشعروا به ، وإذا كان ذلك كذلك فما هي حكمة المعجزة إذا ؟!

يا أصحاب العقول لو أن هؤلاء الألف لهم وجود لانتشر خبرهم ولأج في بنى سعد وهوازن وما حولها من القرى .  
هي الخرافة إذا صورتها وابتدعتها عقول ، اختلت موازينها ، وفقدت قدرتها على التفكير والفهم الصحيحين .

ان شخصية الرسول يجب أن تكون قادرة على الوقوف بنفسها فإذا استطاعت ذلك فهي غير محتاجة الى خوارق ، وإذا لم تستطع فالخوارق لا تكون في هذه الحالة غير انتقاص من صحة الروايات كلها إذ أنها تدخل فيها عنصر لا يمكن تصديقه(٣) .

(٣) الاسلام - الفريد جيوم - ترجمة محمد مصطفى هواره ، ودسوقي  
اليماني السكري ص ٢٤ .

وليس يفهم من ذلك أن حياة الرسول كانت خلوا من الخوارق  
٧ ، انما المهم أن تأسيس اليقين في قلوب الموقنين ، واستئصال العدوان من نفوس المعتدين كان التعامل الفعال فيه يشرا اكتملت في خلقه وخلقه عناصر الكمال الانساني وانتبت الى شخصيته أعجابه  
الطعنة البشرية الناصعة .

ثم ان الحديث الصحيح يشترط في مثله خلوه من الشذوذ والعمل القانحة وأن كان سنده قاثما(٤) .

والحق أنه كان يجب سد الأسماع عن مثل هذه الروايات ، ولعل يصحح دونها وتظهر تاريخنا الثنائي من ذلك اللبس العريض .

ولكن علماءنا - عفا الله عنهم - تساهلوا في الانصاف لمثل هذه الروايات وانشغلوا بنقلها حيناً ، وبتأويلها حيناً ، وحيناً بتزييفها !!  
والتساهل في سماع هذه الروايات هو الذي أعطى حانة الجدل والافتراء لعصائبات المبشرين والمستشرقين ومغشوشى الضمائر ..  
ونحن وحدنا المسؤولون(٥) .

(٤) دفاع عن العقيدة والتريفة ضد المستشرقين - الشيخ محمد  
الغزالي ص ٦٨ .  
(٥) نظرات في القرآن - الشيخ محمد الغزالي ص ٤٨ . ط ٢ .

## شد الأزار وستر العورة

جاء في كذب السيرة أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :  
**البر** رأيتني في غلمان من قريش نقل الحجارة لبعض ما يلعب به  
**البلدان** ، كلنا قد تعرى وأخذ أزاره وجعله في رقبته يحمل عليها  
**الحجارة** ، فأنى لأقبل وأدبر إذ لكمنى لاكم ما أراه ( المقصود أنه  
**من** الملائكة ) لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك أزارك ، فأخذته  
**فشدته** على ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وأزاري على من  
**بين** أصحابي .

كما روى كتاب السيرة أيضا أن قد وقع له صلى الله عليه وسلم  
**مثل** ذلك عند اصلاح أبي طالب لزمزم فعن ابن اسحاق أيضا  
**قال** : كان أبو طالب يعالج ( يصلح ) زمزم وكان النبي ( ص ) ينقل

الحجارة وهو غلام فأخذ أزاره وأتقى به الحجارة فغشى عليه ، فلما أفاق سأله أبو طالب فقال : أثنى آت عليه ثياب بيض فقال لى استتر . فما رؤيت عورته منذ يومئذ .

ثم عاد ابن اسحاق يروى كيف نهى صلى الله عليه وسلم عن التعرى وكشف العورة من قبل أن ينزل عليه الوحي بخمس سنين وذلك عند إعادة بناء الكعبة<sup>(١)</sup> . وقد جاء في السيرة الشامية أن مخلطاي استبعد أن يتكرر هذا وقال بأنه صلى الله عليه وسلم إذا نهى عن شيء مرة لا يعود اليه ثانية بوجه من الوجوه<sup>(٢)</sup> .

وهكذا وبرغم عدم أهمية الموضوع إلا أن كتاب السيرة وروايتها تناقلوه في كتبهم ومدوناتهم ، والمعقول أن النهى عن التعرى قد يكون مقبولا وهو في طفولته وصباه أى وهو غلام أما وهو رجل ناضج متزوج وفي حوالى الخامسة والثلاثين وعلى أعتاب الرسالة ، وسبق أن نصح وهو غلام وقيل أن عورته لم تر بعد ذلك - فأمر غير مقبول ولا معقول .

ولكن كتاب السيرة كانوا يكتبون كل ما يصل الى آذانهم من روايات مهمة أو تافهة ، صادقة أو كاذبة ، صحيحة أو غير صحيحة ، دون نقد أو تمحيص ، وجاء المقلدون من بعدهم فزادوا أن السبق الزمنى يخلع على أخبار السابقين قداسة الحق ، وسلطان البرهان فالتزموها وتقيّدوا بها ، وسلبوا أنفسهم خاصة الانسان ، خاصة البحث والنظر<sup>(٣)</sup> .

(١) دلائل النبوة للبيهقى ٣٩/١ و ٣٧٨ وصحيح البخارى - كتاب الصلاة برواية جابر .

(٢) سبل الهدى والرشاد ( السيرة الشامية ) .

(٣) من توجيهات الاسلام - الشيخ محمود شلتوت ص ١٤٢ .

## سنن السيدتين خديجة وعائشة رضى الله عنهما

في التاريخ العربى الاسلامى فجوات وثغرات - كما رأينا - الحاجة الى أن تتناولها الأعلام والأفكار بالبحث العلمى ، والدراسات الهادفة ، والتمحيص الدقيق حتى تعلو بها الى أفق المنطق ، وتسمو بها الى الدقة الصادقة . ومن هذه الثغرات اهمال الرواية في ربط الأحداث بتواريخها الصحيحة ، وعدم استهداف المنطق العلمى في التحديث عن أعمار الشخصيات التاريخية ، فلقد اتجهت عناية محدثينا الى العناوين والكليات دون التفات الى الدقائق والتفاصيل والجزئيات ، مع ما تستطيع أن تقدم لنا هذه الدقائق والجزئيات من ضوء مبين يذير السبيل الى تفهم الكثير الغامض من حوادث التاريخ .

ومثال ذلك ما تحدثنا به الروايات التاريخية عن سن السيدة خديجة رضى الله عنها ، وأنها كانت يوم أن تزوج بها الرسول صلى الله عليه وسلم قد بلغت الأربعين من عمرها ، وأن السيدة عائشة رضى الله عنها كانت في التاسعة من عمرها يوم زواجها من النبي ( ص ) ، والسن في الحالتين - كما نرى - لا يقرهما المنطق ولا يرضى عنهما العقل ، ولا تتفقان مع الواقع التاريخي(١) .

#### في حالة السيدة خديجة :

أولا : لم يذكر ابن اسحاق وابن هشام شيئا عن سن السيدة خديجة . وهذا الكتاب من أقدم ما كتب عن السيرة ووصلنا .

ثانيا : ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى روايتين : واحدة أنها كانت في الثامنة والعشرين والثانية أنها كانت في الأربعين .

نذكر نص الروايتين فيما يلي :

**الأولى :** أخبرنا هشام بن محمد بن السائب عن أبيه أبي صالح عن ابن عباس قال : كانت خديجة يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنة ثمان وعشرين سنة .

**الثانية :** قال محمد بن عمر : ونحن نقول ومن عندنا من أهل العلم أن خديجة ولدت قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة وأنها كانت يوم تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنت أربعين سنة .

أخبرنا محمد بن عمر : أخبرنا المذخر بن عبد الله الحزامي عن موسى بن عقبة عن أبي حبيب مولى الزبير قال : سمعت حكيم بن حزام يقول : تزوج رسول الله ( ص ) خديجة وهي ابنة أربعين سنة ورسول الله ( ص ) ابن خمس وعشرين سنة وكانت خديجة أسن

(١) انظر خديجة زوجة الرسول - طه عبد الباقي سرود ص ٣٦ .

**ثاني :** يستتين ولدت قبل الفيل بخمس عشرة سنة وولدت أنا قبل الفيل بثلاث عشرة سنة(٢) .

وبالنظر الى تلك الروايات نجد أن الرواية الأولى مصدرها **هشام بن محمد بن السائب الكلبي** : يذكر الذهبي عنه أن أحمد بن حنبل والدارقطني وابن عساکر ذكروا أنه لا يوثق به(٣) . وكان **بروي** عن والده الذي اتهم بالكذب والضعف والذي كان من أصحاب **ابن سبأ** الذي كان يقول أن علي بن أبي طالب لم يمت وأنه راجع الى الدنيا(٤) . واعتبره ابن الجوزي من كبار الوضاعين(٥) . ويذكر الألباني أن هشام هذا هو ابن محمد بن السائب الكلبي الشامي المفسر وهو متروك . قال عنه الدارقطني وغيره والده محمد بن السائب شرمته . قال الجوزجاني وغيره : أنه كاذب ، وقد اعترف هو نفسه أنه يكذب . روى البخاري بسند صحيح عن سفيان الثوري قال : قال لي الكاظمي : كل ما حدثتك عن أبي صالح فهو كذب ! وقال حبان مذهبه في الدين ووضوح الكذب فيه أظهر من أن يحتاج الى الإغراق في وصفه ، ويروي عن أبي صالح عن ابن عباس التفسير **وأبو صالح** لم ير ابن عباس ولا سمع الكلبي من أبي صالح . لا يدل ذكره في الكتب فكيف الاحتجاج به(٦) . وذكر العجلوني وابن الربيع أن الإمام أحمد وصف تفسير الكلبي « من أوله الى آخره كذب » قيل

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ١٦/٨ ( طبعة بيروت ) .

(٣) البزوان ٢٠٤/٤ .

(٤) وفیات الأعيان ٤٣٦/٣ والدخل الى دلائل النبوة للبيهقي ٤٩/١ تحقيق السيد أحمد سقر عايش الصفحة .

(٥) تفسير الجواهر ٥٠/١٦ والفتاوى المجموعة للشوكاني ص ٤٢٦ .  
وكتاب تحذيب المسلمات من الأحاديث الموضوعة لمحمد البشير ظافر الأزهري ص ٢٥ واللائحة الموضوعة في الأحاديث الموضوعة لجلال الدين السيوطي ٤٧٣/٢ .

(٦) سلسلة الأحاديث الموضوعة لمحمد ناصر الدين الألباني ١١/٢

والشوكاني ص ٢١٥ .

فيحل النظر فيه قال لا «(٧) . واعتبره السيوطي كذاباً(٨) . وذكر الصفي عنه أن عبد الرحمن بن مهدي قال عنه سمعت أبا جزة يقول : قال الكلبي : كان جبريل يوحى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقام لحاجه وجلس على فأوحى جبريل إلى علي(٩) . واعتبره الذهبي من المتروكين الغير موثوق بهم فلم يدخله في عداد حفاظ الحديث(١٠) . واعتبره ابن الخطيب من المتروكية أيضاً(١١) .

أما الرواية الثانية فمصدرها محمد بن عمر الواقدي : الذي يضعفه السخاوي(١٢) . وذكر الذهبي أن أحمد بن حنبل قال عنه : هو كذاب يقرب الأحاديث ، وقال عنه ابن معين ليس بثقة ، وقال عنه البخاري وأبو حاتم : أنه متروك . وقال عنه أبو حاتم والنسائي : أنه يضع الحديث ، وقال عنه الدارقطني : فيه ضعف ، وقال عنه ابن عدي : أحاديثه غير محفوظة واللبلاء منه ، وقال عنه أبو غالب ابن بنت معاوية بن عمرو : سمعت الدائني يقول : الواقدي يضع الحديث . وقال أبو داود : بلغني أن علي بن المديني قال : كان الواقدي يروي ثلاثين ألف حديث غريب ، وقال المغيرة بن محمد المهلب : سمعت المديني يقول : لا أرضاه في الحديث ولا في الأنساب ولا في شيء ، وقال ابن راهوية : هو عندي ممن يضع الحديث ، وينتهي الذهبي إلى أن الإجماع استقر على وهن الواقدي(١٣) . ولذلك فلم يسبق ترجمته في تذكرة الحفاظ لاتفاقهم على ترك حديثه(١٤) .

- (٧) كشف الخفاء للمجلوني ٤٠٢/٢ . وتمييز الطبيب من الخبيث لعبد الرحمن بن علي الديب الشيباني ص ٢٥٠ .  
(٨) قانون الموضوعات والضغاء لحمد طاهر بن علي الهندي ص ٢٩٠ .  
(٩) الوافي بالوفيات ٨٢/٣ .  
(١٠) تذكرة الحفاظ ٢٤٣/١ .  
(١١) تاريخ بغداد ٤٥/١٤ .  
(١٢) الامعان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوي ص ١١٧ .  
(١٣) الميزان ٦٦٢/٣ . وأرضاد الأريب إلى معرفة الأدب ١ مجمع الأدباء : لياقوت الرومي ٥٥/٧ .  
(١٤) تذكرة الحفاظ ٢٤٨/١ .

**وله اتهمه المحدثون بأنه أغرب على الرسول بعشرين ألف حديث وأنه كان يروي المناكير(١٥) .** وذكر ابن خلكان أن العلماء تكلموا **ليه** (١٦) وقال النسائي والبخاري : الكذابون المعروفون بوضوع الحديث أربعة : ابن أبي يحيى في المدينة ، والواقدي ببغداد ، ومقاتل ابن سليمان بخراسان ، ومحمد بن سعيد المصلوب بالشام(١٧) . **وذكر** الخطيب أنه مع سعة علمه كان لا يحفظ القرآن وقال عنه **الخليفة** المأمون : هذا الرجل يحفظ التأويل ولا يحفظ التنزيل(١٨) . **ولما** عنه البخاري : أنه متروك الحديث(١٩) . وذكر العجلوني **وابن** الديب أن الشافعي قال : أن كتب الواقدي كذب(٢٠) . وذكر ابن حجر في لسان الميزان أن الإمام أحمد قال : ثلاثة كتب ليس لها **أصول** : وهي المغازي والتفسير والملاحم فهي أودية ( أي ملقطة ) **الأحاديث** الضعيفة والموضوعة إذا كانت العمدة في المغازي على مثل **الواقدي** ، وفي التفسير على مثل مقاتل والكلبي ، وفي الملاحم على **الاسرائيليات**(٢١) . وطعن العلامة ابن خلدون في الواقدي وحسن **من** كتبه وما فيها من تزيف(٢٢) .

وهكذا نجد أن مصدر أو مسند الروایتين ضعيف مجروح . **ومع** ذلك فقد تناقل كتاب السيرة كاتب عن كاتب الرواية الثانية .

- (١٥) الطبقات الكبرى لابن سعد ١١/١ .  
(١٦) وفیات الأعيان ٤٧-٣ .  
(١٧) البخاري في كتاب الضغاء والجواهر في تفسير القرآن ٥٠/١٦ والنسبة ومقاتلها في التشريع الاسلامي د. مصطفى السباعي ص ١١٥ .  
(١٨) تاريخ بغداد ٧/٣ .  
(١٩) تاريخ بغداد ٣٢١/٥ . وعيون الأثر لابن سيد الناس ٨/١ .  
(٢٠) كشف الخفاء للمجلوني ٤٠٢/٢ . وتمييز الطبيب من الخبيث ص ٢٩٠ .  
(٢١) **الربيع** ص ٢٥٠ .  
(٢٢) تاريخ بغداد ١٤/٣ . والتاريخ الصغير للبخاري ص ٢٢٨ .  
(٢٣) تاريخ ابن خلدون ٣/١ - طبعة دار الكتاب اللبناني ص ٥٠٠ .

وأهملوا الرواية الأولى التي قد تكون أقرب الروايات إلى الصحة (٢٣) .

**ثالثا :** ثم نجد الرواية التالية تتكرر في أكثر من مرجع : تقول الرواية « دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على أم المؤمنين خديجة بعد موت القاسم ، وهي تبكي فقالت : يا رسول الله درت لبينة القاسم فلو كان عاش حتى يستكمل الرضاعة لهون على . فقال : ان له مرضعا في الجنة . فقالت لو أعلم ذلك لهون على . فقال : ان شئت أسعمتك صوته في الجنة فقالت : بل أصدق الله ورسوله (٢٤) » .

وهذا الحديث المتبادل - ان صح وبصرف النظر عن اسم الطفل المذكور ففيه خلاف - لا يكون الا بعد النبوة .

**رابعا :** الثابت ان السيدة خديجة أنجبت وأداها الأخير ( عبد الله ) بعد النبوة وتوفى صغيرا ، وقد عير بعض المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم بالابتز عقب وفاة أطفاله الذكور فنزلت سورة الكوثر ، وهي الخامسة عشر في ترتيب نزول القرآن .

من كل ذلك يتأكد ان السيدة خديجة قد حملت ووضعت بعد النبوة ، وإذا كانت قد تزوجت النبي وهي في الأربعين فمعنى ذلك انها كانت تتجب للرسول لمدة سبعة عشر عاما من زواجها أي وهي في السابعة والخمسين من عمرها ، وهذا شيء يستبعد العلم قديما وحديثا .

(٢٣) فقه سيرة نساء النبي - سعيد هارون عاشور ص ٢٢ .

(٢٤) انظر هامش ١/١٩٦ من سيرة ابن هشام تحقيق د. فهمي السرجاني نقلا من مسند القرطبي ، وكذلك هامش ١/١٢٧ من كتاب عداية الباري الى ترتيب أحاديث البخاري ، وثبوته عنها القسطلاني في المواهب اللدنية ١/١٩٦ كما ذكرها ابن ماجه في سننه حديث رقم ١٥١٢ كتاب الجنائز .

وعلى ذلك فلا يبقى أمامنا الا الأخذ بالرواية الأولى التي تقول ان السيدة خديجة كانت في الثامنة والعشرين من عمرها يوم تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي رواية وان كانت ضعيفة السند الا ان متنها يؤيده الدليل الواقعي ، دلائل انجاب السيدة خديجة لمدة سبعة عشر عاما بعد زواجها من النبي ( ص ) أي وهي في سن الخامسة والأربعين لا سن السابعة والخمسين كما تقول الرواية الثانية . هذا بالإضافة ان البيهقي قد ذكر في « دلائل النبوة » رواية من مصعب بن عبد الله الزبيري ان خديجة رضى الله عنها قد بلغت خمسا وستين سنة ويقال خمسين وهو أصح ، كما ذكر ابن كثير نقلا عن البيهقي عن الحاكم ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان في الخامسة والعشرين حين تزوج خديجة وكان عمرها اذ ذاك خمسا وثلاثين ، وقيل خمسا وعشرين سنة (٢٥) . وأورد ابن عساکر في التاريخ الكبير ( ٣٠٢/١ ) ان ابن شهاب الزهري قال عن طريق الزبير ابن بكار ان عمرها كان يوم زواجها ثلاثين سنة . وذكرت السيرة الشامية ان السيدة خديجة كان عمرها رضى الله عنها أربعين سنة وصححه في الغرر المضية وقيل خمسا وأربعين وقيل ثلاثين وقيل ثمانية وعشرين (٢٦) . وذكر ابن كثير في السيرة النبوية ( ٥٩٧/٤ ) ان ابن عساکر روى عن ابن عباس ان عمرها كان ثمانيا وعشرين سنة .

ونخرج من كل ذلك انها رضى الله عنها كانت عند زواجها بالنبى ( ص ) بين الخامسة والعشرين والثامنة والعشرين أو الثلاثين على الأكثر .

ويتفق معنا في هذا د . صالح أحمد العلي فيقول ان الأرجح ان عمرها كان اقل من الأربعين كيما يمكن ان تنجب هؤلاء الاولاد

(٢٥) دلائل النبوة ٤٢٢/١ تحقيق السيد أحمد سقر - وانظر ايضا محمد رسول الله سيرته وآراءه في الحضارة لجلال مطهر ص ٤٥ - والسيرة النبوية لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد ٢٢٤/١ .

(٢٦) السيرة الشامية ٢/٢٢٥ .

بصورة اعتيادية ، وإن كانت هي على أي حال أكبر من الرسول .  
ومن المؤلف في الشرق أن الرجل إذا تزوج بسيدة أكبر منه سناً فإن  
الناس تقول أنها عجوز أو بقدر أمه مع أنها قد لا تزيد عنه أكثر من  
سنة أو سنوات قليلة (٢٧) .

### في حالة السيدة عائشة :

وتختلف الأقوال أيضاً في سن السيدة عائشة رضى الله عنها  
يوم زفت الى النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الثانية للهجرة .  
فحسبها بعضهم تسعاً ويرفعها بعضهم فوق ذلك بضع سنوات ،  
وهو اختلاف لا غرابة فيه بين قوم لم يتعدوا تسجيل المواليد ،  
والأرجح عندنا - كما يقول العقاد - أن السيدة عائشة كانت لا تقل  
عند زفافها الى النبي عن الثانية عشرة ولا تجاوز الخامسة عشرة  
بكثير ، فقد جاء في بعض المواضع من طبقات ابن سعد أنها خطبت  
وهي في التاسعة أو السابعة ، ولم يتم الزفاف كما هو معلوم الا بعد  
فترة بلغت خمس سنوات على أشهر الأقوال ، يؤيد هذا الترجيح أن  
السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها الى النبي صلى الله عليه  
وسلم ، وأن خطبة النبي لها كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة :  
فاما أن تكون خطبت لجبير بن مطعم (٢٨) لأنها بلغت سن الخطبة  
وهي قرابة التاسعة أو العاشرة ، وهذا بعيد جداً أن نتعقد الخطبة  
على هذا التقدير مع اختلاف الدين بين الأسرتين . واما أن تكون  
وعدت لخطبتها جبير وهي وليدة صغيرة كما يتفق أحياناً بين الأسر  
المتألفة ، وجيئئذ يكون أبو بكر مسلماً عند ذلك ويستبعد أيضاً أن  
يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الأسرتان على الاسلام ،

(٢٧) محاضرات في تاريخ العرب - د. صالح أحمد العلي ٢٣٦/١ .

(٢٨) انظر مسند ابن حنبل ٢١٠/٦ - طبقات ابن سعد ٤٠/٨ - التاريخ  
الكليل لابن عساکر ٣٠٣/١ - الإصابة لابن حجر ١٣٩/٨ - وتلقيح قوم أهل  
الآثر في عيون التاريخ والسير لعبد الرحمن بن الجوزي ص ١٠ - والواعب  
الدنية للتسلياني ٢٠٢/١ .

فاذا كان أبو بكر رضى الله عنه قد وافق على خطبتها على جبير  
قبل اسلامه ( اسلام أبي بكر ) فمعنى ذلك أنها كانت قد ولدت قبيل  
الدعوة وقبيل اسلام أبي بكر فتكون بذلك قد ناهزت العاشرة يوم  
جرى حديث خطبتها وزواجها للنبي عليه الصلاة والسلام . ولهذا  
يرجح العقاد أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت  
لنبي ، وأنها رضى الله عنها كانت تسمع تقديرات سننها ممن كان  
حولها - لأنها لم تقرأها في وثيقة مكتوبة - فكان يعجبها - على  
سنة الأنوثة الخالدة - أن تأخذ بالصغر التقديرات ، وكانت هي كثيراً  
ما تدل بالصغر بين أترابها وضرائرها فلا تنسى إذا اقتضى الحديث  
ذلك أن تقول : وكنت يؤمئذ جارية حديثة السن أو كنت يؤمئذ صغيرة  
لا احفظ شيئاً من القرآن . . الى أشباه ذلك من أحاديثها في هذا  
المعنى . ذلك هو التقدير الراجح كما يقول العقاد الذي ينفي ما  
يقوله المستشرقون على النبي صلى الله عليه وسلم بصدد زواجه  
بعائشة من سن مبكرة (٢٩) .

ولعل قائلًا يقول أن الاسلام لم يكن قد حرم زواج المسلمة  
بالمشرك حين أرسل النبي يخطب عائشة التي كانت قد خطبت لجبير  
أبن مطعم بن عدى . ونقول أن أبا بكر حينما بلغه أن النبي يرغب  
في خطبة عائشة لم يقبل فوراً ، إنما أرجأ البت في الأمر لحين الرجوع  
الى المطعم بن عدى يسأله ما موقفه من الخطبة التي كانت قد تمت  
بين جبير وعائشة . وحكمة السؤال هنا واضحة : فالافتاق كان  
قد تم بينهما حينما كانت العلاقة بينهما طيبة ، والورد قائماً ، أما بعد  
اسلام أبي بكر فالوقف يحتاج الى تحديد جديد وإعادة نظر ، لأن  
الاسلام كان سبباً في أحداث تغيير في علاقات الناس بعضهم ببعض ،  
يزيد ذلك أن والد جبير قالت لأبي بكر أن الزواج لن يتم خشية  
أن يكون سبباً في دخول ابنها جبير في الاسلام ووافقها المطعم على  
ذلك . وبذلك انفسخت الخطبة . وهذا مما يؤكد أن خطبة المطعم  
أبن عدى لعائشة على ابنه جبير كانت قبل اسلام أبي بكر أما وقد

(٢٩) الصديقة بنت الصديق - عباس العقاد ص ٤٢ وما بعدها .

اسلم فقد انقطع جبل الود الذي كان قائما بين الأسرتين ، وانقضى السبب الذي من أجله تم الصهر بينهما(٣٠) .

ومعنى ذلك أن عائشة كانت قد ولدت قبل البعثة وتكون قد بلغت العاشرة يوم جرى حديث خطبتها للنبي أو نحو ذلك .

وتناول مولاى محمد على ، والأسستاذ عبد الحميد جوده السحار هذا الموضوع فقالا : من الثابت أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم تكبر عائشة بخمس سنوات ، ومن الثابت أيضا أن فاطمة ولدت أيام إعادة بناء الكعبة أى قبل أن يبعث النبي بخمس سنوات(٣١) . فتكون عائشة قد ولدت سنة نزول الوحي فكانت سننها لا تقل عن العاشرة عندما خطبها النبي في السنة العاشرة للرسالة، وإن شهادة عائشة نفسها لدليل على ذلك، فقد قالت أنها كانت تلعب مع أترابها عند نزول سورة القمر ، وهى السورة الرابعة والخمسون ، وأنها كانت تحفظ بعض آيات السورة وهذه السورة لم تنزل الا في السنة الخامسة للرسالة ، وعلى ذلك فما قيل من أنها كانت تبلغ السادسة في السنة العاشرة للرسالة عندما خطبها النبي أن هو الا قول كاذب ، والا كان مولدها يوم نزول سورة القمر وهو ما تنفيه هى بقولها أنها حفظت بعض آياتها عند نزولها .

(٣٠) وقد حدث ذلك أيضا مع أبى لهب الذى فسح خطبة ولديه يابنئ رسول الله بعد النبوة حين تحولت الملائكة بينهما من ود ومرحمة الى عداوة وصافقة .

(٣١) صفة الصغرة لعبد الرحمن بن الجوزى ٥٧/١ هـ -- الوقت بأحوال المصطفى لنفس المؤلف ٦٥٦/٢ والأثر الحميدة من الواهب الدنيل ليوست من اسماعيل النباهى ص ١٢٦ .

ومن هذا كله يفهم أن سننها لم تكن أقل من عشرة أعوام بحال عندما خطبها النبي ، ولما كانت المدعين الخطبة والدخول بها لا تقل عن خمس سنوات ، فما دخل النبي بها الا في السنة الثانية للهجرة ، وعلى ذلك يكون سننها يوم بنائه بها خمسة عشر عاما . أما دعوى انها كانت في السادسة عند عقد الزواج وأن النبي بنى بها وهى في القاسعة فهى دعوى خاطئة لأن معنى هذا أن الفترة بين العقد والزواج كانت ثلاثة أعوام وهذا خطأ تاريخى لا شك فيه(٣٢) .

كما أكد الدكتور على حسنى الخربوطلى أن سن السيدة هانشة رضى الله عنها كان عند الزفاف خمسة عشر عاما(٣٣) .

والشيخ محمود النواوى مراقب عام التعليم الثانوى بالأزهر مقال في مجلة الوعي الاسلامى ( السنة الثالثة عدد ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٨٧ هـ ) يذكر أن أبا بكر قال لوالدى جبير : ما تقولان في شأن عائشة ؟ فقالا : لعنا ان انكحنا هذا الصبي اليك تدخله في دينك الذى انت عليه ، فلا حاجة لنا في عائشة . ويستند الكاتب على رواية لابن سعد بأن سننها كان نحو اثنتى عشر سنة ، وأنه يعيل الى هذه الرواية . وتعلق المجلة أن قول المطعم يقطع بأن الخطوبة تمت قبل أن يسلم أبو بكر . وأن عائشة بذلك تكون وقت الدخول بها قد تجاوزت اثنتى عشرة سنة قطعاً .

(٣٢) محمد رسول الله -- مولاى محمد على ترجمة مصطفى فهمى وهيد الحميد جودة السحار ص ٢٧١ ، وأيضا في « الفكر الخوالد » لنفس المؤلف ترجمة مأمون نجيا ص ٥٣ ، وكذلك كتاب محمد رسول الله والدين لله لعبد الحميد السحار ٣٠٣/١٥ .

(٣٣) هامش صفحة ١٠١ في « كتاب حياة محمد » لواشنطن ترونج ترجمة د. على حسنى الخربوطلى .

**سرية الدعوة**

تذكر بعض الروايات في كتب السيرة أن الدعوة للإسلام بدأت سرية لمدة تبلغ حوالى ثلاث سنوات الى أن قوى الاسلام ببعض الأشخاص مثل حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ونزلت آية « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ( الحجر ٩٤ ) وأنه صلوات الله وسلامه عليه اتخذ مركزاً سرياً يجتمع فيه وأصحابه الأولون وهو دار الأرقم .

وكيف يمكن التسليم بهذا وتصديقه وآيات سورة العلق وهي أول سورة نزلت من القرآن فيها آيات تدل دلالة قاطعة على أن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ منذ تكليفه بالنبوة يدعو الناس جبهة

ويصلي الله أمام الجميع ، وكذلك آيات سورة المدثر وهي السورة الرابعة في ترتيب النزول « يا أيها المدثر قم فأنذر » ولأنك أنه أطاع وفعل .

روى الطبري حديثا عن عفيف الكندي - من ثلاث طرق - يقول أن عفيف الكندي قدم إلى مكة ، وأتى العباس بن عبد المطلب الذي كان صديقا له : يقول عفيف « فبينما نحن عنده إذ خرج رجل يصلي فقام تجاه الكعبة ، ثم خرجت امرأة فقامت معه تصلي ، وخرج غلام فقام يصلي معه ، فقلت يا عباس ، ما هذا الدين ؟ قال هذا محمد بن عبد الله يزعم أن الله أرسله به ، وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به ، وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به . قال عفيف : فليتنى كنت آمنت يومئذ فكنت أكون رابعا » (١) .

وروى أحمد بن حنبل هذا الحديث في مسنده برقم ١٧٨٧ باختلاف قليل في بعض اللفاظ ، وأن هذا حدث في منى .

وأورد الواحدى في أسباب نزول قوله تعالى « فليدع ناديه سندع الزبانية » وهما الايتان ١٧ ، ١٨ من سور العلق ، أنهما نزلتا في أبي جهل ، ويذكر بعد الاسناد عن ابن عباس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي ، فجاء أبو جهل فقال : ألم أنهك عن هذا التصرف ؟ فأنصرف إليه النبي (ص) فزبره (أي نهزه) فقال أبو جهل : والله أنك لتعلم ما بها ناد أكثر منى ، فأنزل الله تعالى : « فليدع ناديه ، سندع الزبانية » - قال ابن عباس : والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله تبارك وتعالى .

كما ذكر الواحدى في سبب نزول قوله تعالى « ذرني ومن خلقت وحيدا » يعد الاسناد عن ابن عباس رواية وعن مجاهد رواية ملخصة

(١) تاريخ الطبري - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم طبعه دار المعارف ٣١١/٢ وانظر أيضا الوقف بأحوال المصطفى لأبي الفرج عبد الرحمن بن الجزري ١١٧/١ .

أن الوليد بن المغيرة سمع من النبي قرآنا ، وكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه ، واستنكر ذلك منه ، واستنكره وأثارة وخوفه من معايرة قومه له وأحماذ حتى يقول في محمد صلى الله عليه وسلم قولا يبلغ قومه أنه منكر لمحمد وكاره له ، ففكر الوليد وقدر ثم اتهم محمدا بالسحر ، فنزلت « ذرني ومن خلقت وحيدا » (٢) وهي الآية الحادية عشر من سورة المدثر وهي الرابعة في ترتيب النزول كما ذكرنا .

ومعنى ذلك أنه (ص) لم يكن يتخفى ، وأن تلك العلانية هي التي جعلت بريشا وعلى رأسها أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة وغيره يتصنون له ليستعوه وأنهم لجأوا إلى مجادلته ، ومحاوله اغرائه بالمال والسلطان ، كما لجأوا إلى عمه أبي طالب لمحاولة اقناعه بالعمل على منع ابن أخيه من الاستمرار في إعلان دعوته ، حتى وصل بهم الأمر إلى حد الاعتداء عليه وإيذائه ، وأن الله أمر النبي صلى الله عليه وسلم بعدم مخالاة والاستمرار في خطته مع توجيه إنذار قاصم لهذا الزعيم المتصدي بقوله تعالى (أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ، أرأيت أن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، أرأيت أن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تضعه وأسجدوا لغيره ) (٣) من ٩ - ١٦ من سورة العلق .

وفي سورة القلم (الثانية في ترتيب النزول) آيات (فلا تطلع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطلع كل خلاف مبین) (٨ - ١٠ القلم) - والمزمل (الثالثة في ترتيب النزول) آيات (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرة جميلا ، وذرني والمكذبين أُولَى النعمة ومهلهم قتيلا ، أن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما ذا غصنة وعذابا أليما) (١٠ - ١٣ المزمل) .

(٢) أسباب النزول - أبي الحسن علي بن أحمد الراشد الشيباني ص ٢٩٥ و ٢٠٢ .

تدل هذه الآيات التي نزلت مبكرة جدا دلالة قاطعة على أن الجدل والصباح بين النصارى والنبي صلى الله عليه وسلم وبخاصة زعمائهم قد بدأ مبكرا ولا يكون هذا إلا نتيجة الدعوة النبوية الناس وتلاوة القرآن عليهم جهرة ، واستمرار هذا الأسلوب بدون انقطاع ، وبرغم عنف العدواة بين التوحيد والشرك إلا أن النبي ( ص ) حاول جانبا أن يُلطف من حديثها وأن يتجنب مضاعفاتها وأن يضاهي من قبله ونبيه على من حوله فهو يعمل من قطعه ، ويعمل من دمه ، ويعفو عن ظلمه ، ويصابر المشاهة ، ويلين للمشاهقين . نحن ذلك كله لم نجد شيئا مع من أخذ الله هواءه ( ١ ) ، فاضطر الرسول ( ص ) إلى تجنب الزعماء البشاة مؤثرا دون أن يفتنع معهم الصلح بها قد تفيد أية سورة المزمل ( الثالثة في التزلزل ) ، وأصبر على ما يتولون وأهجرهم هجرا جميلا ، ( الآية العاشرة ) ، وتسر دعوتهم مؤثرا على من توسم فيهم الخير والاستجابة وأنه أعفاهم من إعلان إسلامهم حتى لا ينعوا قريشة للنجيب والاضطهاد عن قريش . فكان الرسول يدعو إلى الله تعالى جهرا ، وفي نفس الوقت كان يفرق صغرى الكفار برجاله الذين يشارون إسلامهم ، حتى أصبح كل واحد من الكفار يشك في إيمان أقرب الناس إليه . يؤيد ذلك ما رواه العابداني عن حصين بن عبيد بن - ثاب الخزاعي الذي كانت قريش تعظمه فجأوه وطلبوا منه أن يتوسط لدى رسول الله ( ص ) ليكتب عن ذكر أمتهم بدمه . فلما جاءه نال له رسول الله ( ص ) بإحضاركم كيف من الله ؟ قال : يسبحاني الأرض وواحدا في السماء . قال : فإذا أصابك الضر من تدعو ؟ قال : الذي في السماء ؟ قال : فيستجيب لك وحده وتذكر معه ؟ فلم يبق حصين من مجلسه حتى أسلم . فقام ابنه عمران فقيل رأسه ويديه فرحا بإسلامه . وهذا يدل على أن ابنه دخل الإسلام قبله ولم يكن والده يعرف ذلك .

هذا وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا - كما روى ابن اسحاق - ذهبوا إلى الشعاب فاستنشقوا بصلاتهم من قويمهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله

( ٢ ) ثلاث في الدين والحياة - الشيخ محمد الفزالي ص ١٢٢ .

( ص ) في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون . فتذكروهم وعابوا عليهم ما يستمعون حتى قاتلهم فضررب سعد يومئذ رجلا من المشركين بلحى بعير ( عظم الفخذ ) فشقبه فكان أول دم أريق في الإسلام . وهذا ما كان رسول الله يجب أن يتلاشاه سيما والمسلمون يومئذ قلة .

وإذا قيل أنه وردت أقوال لبعض أصحاب رسول الله مثل ما روى عن عمر بن الخطاب في قصة إسلامه حيث سأل بعد إسلامه : « أنحن على حق أم باطل ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل على حق . فقال عمر : قيم التقدى انن ! ومثل ما روى عن ابن مسعود أنه قال : « هزلنا أمة منذ أسلم عمر ، ولئن رايقنا وما نستطيع أن نصلى بالكعبة ظاهرين أمتين حتى أسلم عمر » .

فأنا نقول أن النبي - حماية لأسحابه وأشقائه عليهم - كان يلزم الحذر في مجملهم سواء للصلاة أو للدراسة أو لسماع القرآن أو لمعلمهم ما يهمهم من أمر دينهم فكان يجتمع بهم بدار الأرقم لأنه لم يكن ممحضا أن يجتمع بهم في دار النبوة أو عند الكعبة كما اعتار أهل مكة . وذلك حتى يتجنب ويجنبهم إثارة الكفار أو الاصطدام بهم . وهذا على ما نتقده شو الذي جعل الأمر يلتبس على بعض المؤرخين فحسبوا أن الدعوة كانت سرية وما كانت كذلك .

وأنا إذ نقرا أذية الكريمة « ودوا لو تدهن فيدهنون » وهي الآية التاسعة من سورة الفلم الثانية في ترتيب النزول وغيرها من آيات الرزع والترميم فانه يتبادر إلى الذهن أن جنوح بعض زعماء قريش إلى طلب المداينة والملاينة من النبي عليه الصلاة والسلام ووعدهم بالمقابلة بأمثل منذ عهد مبكر ، واستمرارهم على ذلك يدل على أنهم لم يكونوا يجدون في أنفسهم من القوة ما يستطيعون به إرغامه على الكف عن دعوته ، والأعذار في تنديداته وحملاته على الشرك والوثنية ، كما يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لديه من الجرأة والقوة الروحية والشجاعة ، والاستغراق في الله ، ما يجعله يظل يملن ، ويتذنب بنذر القرآن وحملاته في وجوههم ، ويقرع بها أذانهم منذ بدء الدعوة دون فتور أو هوانة .

## الهجرة

في الهجرة النبوية من مكة الى المدينة تعرض كثير من المؤرخين وكتاب السيرة لنقل روايات غريبة لو صنعت لأفسدت الخطة السرية التي تكتمها رسول الله صلى الله عليه وسلم في هجرته على جميع الناس . وكان الكتمان عادته ، فقد كان ( ص ) اذا وضع خطة لغزوة ورى بغيرها ولم يفش سرهما لأقرب الناس اليه ، فكيف بخطة الهجرة ، وقريش واعوانها قد تأمروا عليه ويطلبونه حيا أو ميتا ، ويخصصون لمن يأتي به مائة من الإبل .

لذلك فإنه ( ص ) قد أحكم خطة هجرته احكاما دقيقا ، وأعد لكل فرض عدته ولم يدع في حسبانته مكانا للحفظ العميء » وهذا شأن المؤمن مع الأسباب المعتادة ، أن يقوم بها كأنها كل شيء في

النجاح ثم يتوكل بعد ذلك على الله لأن كل شيء لا قيام له إلا بالله ،  
 فإذا استفرغ المرء جهوده في أداء واجبه فالحق بعد ذلك فإن الله  
 لا يلومه على مزمية إلى بها ، ولما يحدث ذلك إلا عن قدر قاهر  
 يعذر المرء فيه ، وكثيرا ما يرتب الإنسان مقدمات النصر ترتبها  
 حسنا ثم يجيء عون أعلى يجعل هذا النصر مضاعف الثمرات :  
 كالسفينة التي يشق عباب الماء بها ريان ماهر فإذا التيار يساعدها  
 والريح تهب إلى وجهها فلا تمكث غير بعيد حتى تنتهي إلى غايتها  
 في أقصر من وقتها المقرر ، وهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم  
 من مكة إلى المدينة جرت على هذا الغرار (١) .

فقد استبقى رسول الله ( ص ) معه عليا وأبا بكر ، وأذن لساائر  
 المؤمنين بالهجرة إلى المدينة ، فلما أبو بكر غاب عن الرسول ( ص ) قال  
 له حين استأذنته ليهاجر : لا تجعل لعل الله أن يجعل لك صاحبا .  
 وقیم أبو بكر طبعاً أن الرسول يعنيه بذلك ، فابتاع راحلتين أخذ  
 يعلفهما أربعة أشهر أعدادهما لذلك ، أما على فإن الرسول ( ص )  
 هبها لدور خاص يؤديه في هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر .

ولننظر إلى ما أورده ابن هشام من رواية ابن اسحاق : يقول  
 ابن اسحاق فحدثني عن لا أقوم عن عروة بن الزبير عن عائشة أنها  
 قالت : كان لا يخطي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت  
 أبي بكر أحد طرفي النهار ، أما بكرة وأما عشيا ، حتى إذا كان  
 اليوم الذي أذن الله فيه رسوله في الهجرة والخروج من مكة من بين  
 ظهري قومه ، أتانا رسول الله ( ص ) بالهجرة متقنعا في ساعة  
 كان لا يأتي فيها . قالت : فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول  
 الله ( ص ) في هذه الساعة إلا لأمر حدث ( يقصد هام ) . فلما دخل  
 تأخر أبو بكر عن سريره ( مكان جلوسه ) فجلس رسول الله ( ص )  
 وليس يوجد إلا أنا وأختي أسماء ، فقال رسول الله ( ص ) أخرج  
 عني من عندك . قال يارسول الله إنما هما ابتأتني . وما ذلك فذاك

أبي وأمي . قال : إن الله أذن لي بالخروج والهجرة ، فقال أبو بكر :  
 الصحبة يارسول الله . قال : الصحبة . قالت عائشة : فوالله ما  
 شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يركبني من النرح حتى رأيت أبا بكر  
 يومئذ يركبني . ثم قال أبو بكر : يا بني الله إن هاتين الراحلتين كنت  
 أعديتهما لهذا . ثم استأجرا أربعين رطلا وهو مشترك بينهما على  
 الطريق ، ودفعنا إليهما راحلتيهما فكانتا عنده برعاما لميادهما .

قال ابن اسحق : ولم يعلم - فيما بلغني - بخروج رسول الله  
 ( ص ) حين خرج - يقصد أرى الخروج - إلا على وأبو بكر وآله .  
 أما على فإن رسول الله ( ص ) أمره أن يتخلف حتى يؤدي عنه  
 الودائع التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ( ص ) ليس بمكة  
 أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صسسته  
 وأمانته .

« ولاحظ أن النبي ( ص ) كتم سره ، فلم يطلع عليه إلا من  
 لهم صلة ماسة بولم يتسمع في إطلاقهم إلا بقدر العمل المنوط بهم .  
 كما استأجرا راحلتين بطريق الصحراء ليستعينا بخبرته على  
 مغالبة الطاردين ، ونظرا في هذا الاختيار إلى الكفائية وحدهما : فإذا  
 اكتملت في أحد - ولو كان مشتركا - استخدامهما وانتقما بجهيته .

ثم أصدر الرسول أن يدفع ثمن راحلته وأبي أن يقطع أبو بكر  
 به لأن الثقل في الهجرة شرب من العبادة يذهب الحرص عليه ،  
 وتستبعد الندابة فيه .

وافاق الرسول ( ص ) مع أبي بكر على تفصيل الخروج ،  
 وتفصيل الغار الذي يأوون إليه ، وتفصيله جنوبا في اتجاه اليمن  
 لتفصيل المناردين ، ودعوا الأساقفة الذين يعتزلون بهم أثناء  
 الملاجئ إليه . ومهمة كل شخص (٢) .

(٢) فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي .

(١) فقه السيرة - الشيخ محمد الغزالي .

ثم عاد الرسول صلى الله عليه وسلم الى بيته فوجد قريشا وحلفاءها قد بدأوا يضربون الحصار حوله ، وبعثت بالفتيان الذين وكل اليهم اغتيال محمد صلى الله عليه وسلم وتفريق دمه بين القبائل .

وأمر الرسول ( ص ) على بن أبى طالب في هذه الليلة الرهيبة أن يرتدى برده الذى ينام فيه وأن ينام به على سريريه ، وفي هجرة من الليل ، وغفلة من المتأمرين أنسل الرسول ( ص ) من بيته الى دار أبى بكر ، ثم خرج الرجلان من خوخة في ظهرهما ( أى فتحة في ظهرهما ) الى غار ثور . الى الغار الذى استودعته العناية مصير الرسالة الفاتمة ومستقبل حضارة كاملة ، وتركته في حراسة الصمت والوحشة والانقطاع .

وهنا نرى أنه من المفيد اثبات روايتين أخريين وردت أحدهما في « السيرة الحلبية » جاء فيها : أن الرسول ( ص ) أمر عليا أن يؤدى الأمانات والودائع لأصحابها وأن ينتظر تعليمات أخبرى سيرسلها اليه ، وكلفه أن يبلغ أبا بكر إذا جاء أن يخرج خلف رسول الله نحو بئر أم ميمون . وقد فعل ذلك على حينما حضر أبو بكر الذى أسرع باللاحاق برسول الله ، ومضيا سويا يتسيران حتى أتيا جبل ثور ، وأضاف الحلبى نقلا عن سبط بن الجوزى أن أبا بكر لما لحقه ( ص ) أثناء الطريق ظنه رسول الله من الكفار فأسرع في المشي فانقطع رباط نعله وجرح إبهامه فسال الدم منه ، فرقع أبو بكر صوته ليعرفه (٣) .

كما أورد القسطلاني في المواهب أن أبا بكر قال : نظرت الى قدمي رسول الله ( ص ) في الغار وقد تقطرتا دما فاستبكت وعلمت أنه ( ص ) لم يكن تعود الحفا والجفوة (٤) .

( ١ ) السيرة الحلبية - لعلى بن برهان الدين الحلبى ٤٢٨/١ .

( ٢ ) المواهب اللدنية - لأحمد بن محمد بن أبى بكر القسطلاني ٦٢/١ .

كما ذكر المقرئى في امتاع الاسماع أن قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم قطرت دما أثناء صعودهما الى الغار (٥) .

أما الرواية الثانية فقد أوردها البلخى في « البدء والتاريخ » فذكر أن الرسول ( ص ) أمر عليا أن ينام في فراشه وقال له : فانه لا يخلص اليك شيء تكرمه ، وإن أتاك أبو بكر فأخبره انى قد خرجت الى ثور امحل ( غار بأسفل مكة ) ومعه قليلحق بى ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم (٦) .

ثم نعود لابن اسحاق الذى يقول : ان أبا بكر كان قد أمر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما مايقول الناس فيهما ثم يأتيهما اذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من اخبار ، كما أمر عامر بن قهيرة حوله أن يرعى غنمه في رعيان أهل مكة فإذا أمسى أراح عليهما غنم أبى بكر فاحتلبا وذبها ، فإذا غدا عبد الله بن أبى بكر من عندهما الى مكة أتبع عامر بن قهيرة أثره بالغنم حتى يعفى عليه ، حتى اذا مضت الثلاث ، وسكن عندهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذى استأجرا ببيعيريهما ويعير له ، وأتتهما اسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما بسفرتهما ، ونسيت أن تجعل لها عصاما ( رباطا ) فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة ، فإذا ليس لها عصام فقل نطافها فتشقه فتجعله عصاما ، ثم علقها به ولذلك سميت ذات النطاقين .

وبعد ، نغتن اذا تأملنا الرواية كما رويت هكذا نلاحظ :

أولا : أن رواية السيرة الحلبية ورواية البلخى في البدء والتاريخ أقرب الى الرجحان لأن المسير فرادا أقل لفتا للنظر من المسير مع بعضيهما ، وأكثر امعانا في التخفى وتضليل المطاردين .

(٥) امتاع الاسماع - للمقرئى - ٤٠/١ .

(٦) البدء والتاريخ لآبى زيد أحمد بن سهل الباكى ( وهو مطهر بن طاهر

المقدسى ) ١٧٠/٤ .

**ثالثا :** ليس من المعقول أن عامر بن فهيرة كان يروح عليهم كل ليلة بغنيماتهما إلى الغار فيجلب لهما ويذبح وكانهما في رحيلة ترفيفية ممتعة طوال ثلاثة أيام أو في سفر عادي ، أيام كان المشركون الذين جنوا بغيظهم يبذلون جهودا جبارة للعثور عليهما . وإن مكة في تلك الأيام بالذات كان لا يخفى فيها سر ، فعيون قريش وآذانها على كل طريق ووراء كل بصمة قدم فوق رمالها ، ومع كل همسة يتبادلها اثنان ، كما كانت تتابع بلاشك كل من له صلة بهما متابعة دقيقة ويحصون عليهم الأنفاس . بالإضافة إلى صعوبة صنعهم الغنيمات إلى هذا الغار لارتفاعه ، وبوعورة الطريق إليه يعلم ذلك كل من رأى هذا الغار أو صعد إليه ، كما أن الذبيح يستتبع الطهي ، والطهي لا يد له من ثيران والثيران تفضيخ من بوقدها : ليلا بضميرها ونهارا بدخانها . كما أن المهاجرين لم يكونوا في حاجة إلى لحم على الأقل لمدة يومين أو ثلاثة ، فقد جاء في السيرة الشامية رواية عن عائشة أن أسرة أبي بكر قد صنعت لهما سفرة في جراب كانت تحوى ضمن ما احتوت شاة عطبوخة (٧) .

وأورد السهوي في وفاء الوفا قول الحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لبثت مع صاحبي يعني أبا بكر في الغار بضعة عشر يوما ما لنا طعام الا تمر الدبرير أي الأراك ، فقال الحاكم معناه : مكثنا مشتقين من الكفار في الغار وفي الطريق بضعة عشر يوما (٨) كما أورده أيضا المقرئ (٩) .

(٧) السيرة الشامية - سبل الهدى والمرشاد في سيرة خير العباد - لحمد بن يوسف الصالح النامي ٣/٢٢٧ .  
(٨) وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ( ص ) لابن الحسن بن عبد الله السهوي ١/١٧١ .  
(٩) امتاع الأسماع - تقي الدين أحمد بن علي القرطبي ١/٤١٠ .

**ثالثا :** ولا يعقل أن أبا بكر قد وأعد دليله ( عبد الله بن أريقط ) وهو مشرك أن يأتيهما بالراحتين إلى باب الغار بعد ثلاث ليال ! فكيف يأمنه على هذا السر الرهيب وهو على دين قريش ، وهناك جائزة كبيرة لمن يجيء بهما أحياء أو أمواتا . ومائتان أو مائة من الإبل في الصحراء ثروة تسيل اللعاب ، وتقرى بركوب المخاطر ، وتحمل المشاق ، ويذكر الدكتور حسنين مؤسس أن الجمل في تلك الأيام كان يساوي حوالي ٣٥ أوقية من الذهب والأوقية وزن مثقال من الذهب (١٠) .

والاقرب إلى الحق والمنطق والحذر أن عامر بن فهيرة مولى أبي بكر هو الذي كان مكلفا بملازمة عبد الله بن أريقط والاتصال به والتمهل معه منذ الاتفاق معه ، وهذه الأيام الثلاثة ، وأنه هو الذي صاحبه إلى مكان ما يبعد عن الغار اتفق عليه معه أبو بكر ، وأن ابن أريقط لم يكن يعلم مكان اختباء المهاجرين ، كما لم يكن يعلم شخصيتيها على الأقل شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا سر سفرهما حتى وقت السفر ، وأن كان علم بعد ذلك فبعد أن ابتعد الركب عن مكة بمسافة طويلة يستحيل بعدها على ابن أريقط أن يفشى سرهما ، هذا وقد صاحب عامر بن فهيرة المرتحلين فقد أرفقه أبو بكر خلفه .

رابعا : لا تشك لحظة في أن أسماء لم تذهب إلى الغار ، وأن رواية ابن اسحاق نفسه تؤيد ذلك فهو يقول : حدثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت : لما خرج رسول الله ( ص ) وأبو بكر رضي الله عنه أثنان نفر من قريش فيهم أبو جهل ابن هشام فوقفوا على باب

(١٠) دراسات في السيرة النبوية - د. حسين مؤنس .

أبى بكر ، فخرجت اليهم فقالوا : أين أبوك يابنت أبى بكر ، قالت : قلت لا أدري والله أين أبى . قالت فرفع أبو جهل يده وكان فاحشا خبيثا فلطم خدى لطلعة طرح منها قرطى . ثم انصرفوا فمكثنا ثلاث ليال ، وما ندرى أين وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ذلك أن أسماء لم تكن تذهب الى الغار . وإنما انما شقت نطاقها في البيت ، يؤكد ذلك ما ورد في السيرة النسائية ( ٣ / ٣٢٧ ) والسيرة الحلبية ( ١ / ٤٢٥ ) أن عائشة قالت : فجهزناهما أخف الجهاز ووضعنا ( بصيفة الجمع ) لهما سفرة في جراب ، فشقت أسماء بنت أبى بكر قطعة من نطاقها - وفي لفظ قطعت نطاقها قطعتين فأوكت ( أى ربطت ) بقطعة منه الجراب ، وشدت ثم القربة بالباقي فسميت ذات النطاقين ، كما أن هذا يوافق ما ذكره البخارى ومسلم ( البخارى ٧٣/٥ ) .

## قصة بحيرا الكاهن

اهتم كتاب السيرة بقصة ذلك الكاهن الذى كان يسمى بحيرا ، وكان يقيم في صومعة في « بصرى » من أرض الشام ، ويزعمون أنه كان من علماء النصرانية أو اليهودية ، وكانت قوافل العرب تمر بهذه الصومعة ولا تحفل بها .

ويروون أن أباً طالب خرج في إحدى القوافل تاجرا الى الشام، وصحبه ابن أخيه محمد ، وكان مايزال صغيرا تقول عنه الروايات أنه كان ما بين التاسعة والثانية عشرة . ويزعم الرواة أن الراهب بحيرا دعا القافلة تلك - ولم تكن تلك عادته - الى وليمة وأصر عندما لبى أفراد القافلة الدعوة وتخلف محمد لحداثة سنه - أصر

على أن يحضره ليشترك في المائدة ، وأنه اختبر محمدا وكشف عن علامات النبوة فيه ، وأنه نصح عمه بالعودة به الى مكة خوفا من اليهود أو الروم الذين اذا عرفوه فسوف يقتلونه ، وأن عمه أطاع النصيحة .

ويؤمن الرواء الذين نفخوا في هذه القصة وبألغوا فيها أن بعض الناس قد سمعوا ماتقا يهتف : ألا أن خير أهل الأرض ثلاثة : بحيرا ورياب ابن البراء الشنئى ، والثالث : المنتظر . أما المنادى فهم يقصدون أنه من الملائكة ، وأما رباب بن البراء الشنئى فكان من الطيبين وكان قبره وقبر ولده من بعده يرى عندها مطر خفيف . وأما المنتظر فهو محمد . إذا فبحيرا هو خير أهل الأرض . أى أنه مؤهل ليلعب دورا هاما في حياة محمد ورسالته .

هذا وإننا نرى في كتب السيرة قصصا كثيرة لرهبان وأخبار رآوا محمدا وعرفوا أنه النبى المنتظر ، ولكن المستشرقين ينتقوا قصة الراهب بحيرا دون غيرها وحاولوا أن يؤكدوا أن هذا الراهب هو الذى لقن محمدا الدين والعقيدة والرسالة بعد أن رأى علامات النبوة فيه . ليس خير أهل الأرض !!

والغريب هنا أن المستشرقين الذين كتبوا في سيرة محمد ويقولون أن المسلمين هم الذين ألثوا ووضعوا قصص الرهبان الذين تنبأوا برسالة محمد ونبوته ليؤكدوا أو يعززوا دينهم ، فلماذا إذا يهتمون بقصة بحيرا بالذات ويبالغون فيها ؟! فهم إما أن ينكروا كل تلك القصص لأنها كما يدعون موضوعة ، وإما أن يصدقوها ويعترفوا بها ، إما أن ينكروا كل القصص ولا يتمسكوا إلا بقصة بحيرا فأمر غير منطقي ، وغير مفهوم !!

ونرى أن من المستحسن قبل أن نناقش هذه الرواية أن نستعرض بعض الروايات التى ذكرها بعض الذين كتبوا في السيرة .

الرواية عند ابن اسحاق ( ٨٥ - ١٥١ هـ ) في ( السيرة لابن هشام ) .

أخذ أبو طالب محمدا وكان صغيرا في سفرة الى الشام ضمن قافلة تجارية ، ونزل الركب بصرى ، وكانت بها صومعة يعيى فيها راهب يقال له بحيرا ، وكان اليه علم أهل النصرانية . ولما رآهم بحيرا في هذا النعام أعد لهم طعاما ودعاهم ، ويزعمون أنه لم ينزل ذلك إلا لأنه رأى رسول الله وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وسماحة تطله من بين القوم ، ولما نزلوا في ظل شجرة قريبة نظر بحيرا إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهسرت أغصان النخلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظل بها .

واستجاب القوم للوليمة وتخلف رسول الله ( ص ) ولكن بحيرا أصبر أن يحضره ، فحضره . ففعل بحيرا يلحظه لحظا شديدا ، ثم أخذ يسأله عدة أسئلة ، ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة ، ثم سأل أبا طالب عدة أسئلة أخرى ، ثم نصحه بأن يرجع بأبن أخيه إلى بلده . وحذره من اليهود الذين إذا عرفوه أسوه ، وقال له أنه كائن لهذا الصبي شأن عظيم . وأن أبا طالب استجاب إلى هذا التحذير وعاد به إلى مكة . كما أن بعض أهل الكتاب من الرومان - زبيرا وتماما ودريسا - كانوا ينتبهون محمدا يريدون به سوءا وأن بحيرا ردهم عنه ومنع عنه إذا هم .

الرواية عند ابن سعد : ( ١٦٨ - ٢٤٠ هـ ) في ( الطبقات الكبرى طبعه بيروت ) .

توجه أبو طالب نحو الشام ومعه محمد ( ص ) فنزل منزله ، فأتاه راهب فقال : إن فيكم رجلا صالحا ، فقال : إن فينا من يقرى الضيف ، وبذلك الأسير ، ويفعل المعروف . أو نحو من هذا ، ثم قال : إن فيكم رجلا صالحا ، ثم قال : أين أبو هذا الغلام ؟ قال : فقال هاءنذا وليه ، أو قيل هذا وليه ، قال : احتفظ بهذا الغلام

ولا تذهب به الى الشام ، ان اليهود حسد ، واني اخشاهم عليه ، قال ما انت تقول ذلك ولكن الله يقوله ، فرده ، قال : اللهم انى استودعك محمدا ثم انه مات .

قال : اخبرنا محمد بن عمر ، حدثني محمد بن صالح وعبد الله ابن جعفر وابراهيم ابن اسماعيل بن ابي حبيبة عن داود بن الحصين قالوا : لما بلغ رسول الله ( ص ) اثنتى عشرة سنة ، خرج به ابو طالب الى الشام في العير التي خرج فيها للتجارة ونزلوا بالراهب بغيرا ، فقال لابي طالب في النبي ( ص ) ما قال ، وامره ان يحتفظ به ، فرده ابو طالب معه الى مكة .

ورواية اخرى : لما خرج رسول الله في تجارة خديجة وهو في الخامسة والعشرين وبصحته ميسرة - قديما بصرى من الشام ، فنزلا في ظل شجرة ، فقال نسطور الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط الا نبي . ثم قال لميسرة : افي عينيه حمرة ؟ قال نعم لا تفارقه ، قال : هو نبي وهو اخر الانبياء ، ثم باع سلعته فوق بينه وبين رجل تلاح فقال له : احلف باللات والعزى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حلفت بهما قط واني لامر فاعرض عنهما فقال الرجل : القول قولك ، ثم قال لميسرة : هذا والله نبي تجده ابحارنا منعوتا في كتبهم .

الرواية عند الطبري : ( ٢٢٤ - ٢١٠ هـ ) طبعة دار المعارف تحقيق محمد ابو الفضل .

خرج ابو طالب برسول الله وهو غلام الى الشام ، ولما نزل المركب بصرى من ارض الشام ، وبها راهب يقال له بغيرا في صومعة له ، وكان ذا علم من اهل النصرانية ، فلما نزلوا ذلك العام ببغيرا صنع لهم طعاما كثيرا ، وذلك انه رأى رسول الله ( ص ) وهو في صومعته عليه غمامة تظله من بين القوم ، ثم اقبلوا حتى نزلوا في ظل شجرة قريبا منه فنظر الى الغمامة حتى اظلت الشجرة وتبهت اقصان الشجرة على رسول الله ( ص ) حتى استظل

تحتها ، فلما رأى ذلك بغيرا نزل من صومعته ، ثم ارسل اليهم فدعاهم جميعا ، فلما رأى بغيرا رسول الله ( ص ) جعل يلحظه لحظا شديدا ، وينظر الى اشياء من جسده قد كان يجدها عنده صفته . فلما فرغ التوم من الطعام وتفرقوا سال رسول الله ( ص ) عن اشياء في حاله ، في يقطته وفي نومه ، فجعل رسول الله ( ص ) يخبره فيجدها بغيرا موافقة لما عنده من صفته ، ثم نذر الى ظهوره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه ، ثم قال بغيرا لعنه ابي طالب : ما هذا الغلام منك ؟ قال : ابني ، فقال له بغيرا : ما هو بابك ، وما ينبغي لهذا الغلام ان يكون ابود حيا . قال : فانه ابن اخي . قال : فما فعل ابره ؟ قال : مات واهمه حيلي به . قال : صدقت ، ارجل به الى بلدك ، وامدح عليه يهود فوالله لمن راوه وعرفوا منه ما عرفتم لميغته شرا ، فانه كائن له شأن عظيم ، فاسترع به الى باده ، فخرج به عنه سريعا حتى اقدمه مكة .

وقال هشام بن محمد : خرج ابو طالب برسول الله صلى الله عليه وسلم الى بصرى من ارض الشام وهو ابن تسع سنين .

حدثني العباس بن محمد : قال حدثنا ابو نوح قال حدثنا يونس ابن ابي اسحاق عن ابي بكر ابن ابي موسى ، عن ابي موسى قال : خرج ابو طالب الى الشام وخرج معه رسول الله صلى الله عليه وسلم في اشياخ من قريش ، فلما اشرقوا على الراهب هبطوا فدخلوا رحالهم ، فخرج اليهم الراهب ، وكانوا قيل ذلك يعمرون به فلا يخرج اليهم ولا يلتفت . قال : فهم يحلون رحالهم فيجعل يتخللهم حتى جاء فاتح بيد رسول الله ( ص ) فقال : هذا سيد العالمين ، هذا رسول العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين . فقال له اشياخ قريش : ما علمك ؟ قال : انكم حين اشرقت من العقبة لم تبق شجرة ولا حجر الا خر ساجدا ، ولا يسجدون الا للنبي ، واني اعرفه بخاتم النبوة ، اسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة .

ثم رجع فصنع لهم طعاما ، فلما اتاهم به كان هو في رعية الابل قال : ارسلوا اليه ، فاقبل وعليه غمامة ، فقال انظروا اليه ،

عليه غمامة تظله ! فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه الى فئء الشجرة ، فلما جلس مال فئء الشجرة عليه . فقال : انظروا الى فئء الناجرة حال عليه ، قال : فبينما هو قائم عليهم ، وهو يناشدهم الا يذهبوا به الى الروم ، فان الروم ان راوه عرفوه بالصفة فقتلوه ، فالتفت فاذا بسبعة نفر قد اقبلوا من الروم . فاستقبلهم ، فقال حاجاء بكم ؟ قالوا جئنا ان هذا النبي خارج هذا الشهر ، فلم يبق طريق الا يبعث اليها ناس ، وانا اخبرنا خيره فبعثنا الى طريقك هذا . قال لهم : هل خلفت خلفكم احدا اخر منكم ؟ قالوا : لا انما اخبرنا خبره فبعثنا الى طريقك هذا . قال افرأيت امرا اراد الله ان يقضيه ، هل يستطيع احد من الناس رده ؟ قالوا : لا . فتابعوه واقاموا معه . قال فاتاهم ، فقال : انشدكم الله ، ايكم ولى ؟ قالوا : ابو طالب ، فلم يزل يناشده حتى رده ، وبعث معه ابو بكر رضى الله عنه بلالا ، وزوده الراهب من الكعك والزيت .

**الرواية عند اليعقوبى :** ( المتوفى بعد سنة ٢٩٢ هـ )

ذكر السفر الى الشام بصحبة ابي طالب . ولم يذكر شيئا عن بحيرا .

**الرواية عند المسعودى :** ( المتوفى ٣٤٦ هـ - طبعة دار المعرفة بيروت )

في ٧٥/١ ، بحيرا الراهب ، وكان مؤمنا على دين المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، واسم بحيرا في التصاري سرجيس وكان من عبد القيس ، ولما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عمه ابي طالب الى الشام في تجارة وهوابن اثنتى عشرة سنة ومعهم ابو بكر وبلال ، مروا ببجيرا وهو في صومعته ، فعرف رسول الله ( ص ) بصفته ودلائله ، وما كان يجده في كتابه ، ونظر الى الغمام تظله حيثما جلس ، فأنزلهم بجيرا واكرمهم ، واصطنع لهم طعاما . ونزل من صومعته حتى نظر الى خاتم النبوة بين كتفى رسول الله ( ص ) ووضع يده على موضعه ، وأمن بالنبي ( ص ) وأعلم ابايكر

وبلالا بقصته ، وما يكون من امره ، وسال ابا طالب ان يرجع به من وجهه ذلك ، وحذرهم عليه من اهل الكتاب . وأخير عمه ابا طالب بذلك ، فرجع به ، فلما رجع من سفره ذلك ، كان بدء قصته مع خديجة وما أظهره الله من دلائل نبوته ، وما اخبرت به مما كان منه في طريقه .

وفي ٢٨١/٢ : ذكر المسعودى ان محمدا خرج مع عمه الى الشام وله ثلاث عشرة سنة ، وفي خروجه نظر بحيرا اليه . وأوصاهم بعراعاته من اليهود فانهم اعداؤه لعلمهم بما يكون من نبوته .

**الرواية عند ابي الحسن على بن احمد الواحدى النيسابورى :** ( المتوفى ٤٦٨ هـ في اسباب النزول )

في ص ٢٥٤ : صحب ابو بكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة ورسول الله ( ص ) ابن عشرين سنة وهم يريدون الشام في التجارة ، ففزلوا منزلا فيه سدره ، ففقد رسول الله ( ص ) في ظلها . ومضى ابو بكر الى راهب يسأله عن الدين ، فقال له : من الرجل الذى في ظل السدره ؟ فقال : ذاك محمد بن عبد الله ابن عبد المطلب ، قال : هذا والله نبي ، وما استظل تحته أحد بعد عيسى بن مريم الا محمد نبي الله فوقسح في قلب ابي بكر اليقين والتعديق ، وكان لا يفارق رسول الله ( ص ) في أسفاره وحضوره . فلما نبىء رسول الله ( ص ) وهو ابن اربعين سنة وابو بكر ابن ثمان وثلاثين سنة أسلم وصديق رسول الله ( ص ) ، فلما بلغ اربعين سنة قال : رب أوزعنى ان أشكر نعمتك التى أنعمت على .

**الرواية عند احمد بن محمد بن ابي بكر الخطيب القسطلانى :** في المواهب اللدنية .

في ٣١/١ : ولما بلغ رسول الله ( ص ) اثنتى عشرة سنة خرج مع عمه ابي طالب الى الشام حتى بلغ بصرى فرآه بحيرا الراهب واسمه جرجيس فعرفه بصفته . فقال وهو آخذ بيده : هذا سيد

العالمين ، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين ، فقليل له وما علمك بذلك ؟ قال انكم حين شرفتم به من العقبة لم يبق شجر ولا حجر الا خر ساجدا ولا يسجدان الا لئبي ، واننى اعرفه بخاتم النبوة في أسفل غصروف كتفيه مثل التفاحة ، ولما نجده في كتبنا ، وسأل ابا طالب ان يرده خوفاً عليه من اليهود . والحديث رواد ابن ابي شيبة وفيه انه ( ص ) اقبل وعليه غمامة تظله . وخرج الترمذى ، وحسنه . والحاكم وصححه ، ان في هذه السفرة اقبل سبعة من الروم يقصدون قتله فاستقبلهم بحيرا واقنعهم بتركه . ورده ابو طالب وبعث معه ابو بكر بلالا . ونكر القسطلاني ان الذهبي ضعف الحديث لقوله في آخره . وبعث معه ابو بكر بلالا ، فان ابا بكر ان ذاك لم يكن متاهلا ولا اشترى بلالا .

الرواية عند الحافظ ابي نعيم احمد بن عبد الله الاصبهاني : ( ٢٢٠ - ٤٢٠ هـ ) في دلائل النبوة .

ذكر عدة روايات :

في ٥٢/١ : ذكر القصة كما أوردها ابن اسحاق . وأضاف ان رجالا من اليهود أرادوا ان يقتلوه بعد ان عرفوا صفته وهم : زريد ، وتعام ، ودبيس .

وفي ٢/١ : ذكر القصة كما أوردها الطبري والتي جاء فيها ان سبعة نفر من الروم قد اقبلوا يريدون اذاء الرسول فمنعهم بحيرا عن ذلك .

وجاءت القصص في السيرة الحلبية ، وفي الكامل في التاريخ لابن الاثير ، وفي البداية والنهاية لابن كثير ، وفي سبل الهدى والرشاد ، وفي عيون الاثر ، وفي التاريخ الكبير لابن عساكر . بما لا يخرج عما اثبتناه من روايات .

ونضيف فيما يلي أيضا بعض الروايات التي ذكرها بعض المستشرقين في هذا الموضوع .

الرواية في « الرسول : حياة محمد » تأليف ر . ف . بودلى : ترجمة محمد محمد فرج وعبد الحميد السحار .

في ص ٢٤ : صاحب محمد ابا غالب في رحلة تجارية الى الشام ، وهناك الى جوار سوق بصرى دير للرهبان النسطوريين المسيحيين ، وكانوا يعرفون ابا طالب فدعوه الى طعام ، وقد لفت محمد نظر بحيرا الراهب بأسنلته وتفكيره وتطلعه الى المعرفة ، وقد اثرت فيه افكاره السديدة ، فراح الراهب يحدث العربي الصغير وكانما كان يحدث رفيقا من رفقائه ، فآخبره بعقيدة عيسى ، وسفسفه عبادة الاصنام ، وأرشف محمد السمع الى ماينطق به الرجل ، كان غريبا يخالف ما نشأ عليه واعتقد فيه ( ويقول المترجمان ان المؤلف يهود بذلك لان يقول في الفصول الأخيرة من الكتاب ان محمدا قد تعلم من بحيرا ما جاء في القرآن من نصوص تتفق ونصوص الكتاب المقدس ، على الرغم من ان محمدا لم ير الكتاب المقدس ابدا ، وان هذا التعليل واه ، فقد كان محمد في العاشرة ، ومن غير المعقول ان مقابلة واحدة بين بحيرا ومحمد ( ص ) في سن العاشرة تترك كل هذا الاثر . ان من حظ بحيرا ان قابل محمدا ، فلولاً هذه المقابلة لاندثر كما اندثر ملايين الرهبان قبله وبعده ) .

وان الشخص الآخر الذى حدثه حديث المسيحية كانت الجارية بركة ، وكانت مسيحية نقية فلم يتمكن آتئذ من ان يفهم ما تقول ، وان ما يسمعه الآن لجللى كل الجلاء ، فالوثنية وعبادة الطبيعة تناهيان المنطق . هذا هو الحق ، وليس من المعقول ان لدى محمد أية فكرة عن الديانة أو كيفية تطبيقها على نفسه ، وماكان شبابه ليضيق في عبادة الأصنام في الكعبة ، انه اخترن في عقله الواسع ما قاله الراهب النسطوري ، فاذا جد الجد ، وجد عنده قدرا من المسيحية استغله خير استفلال .

الرواية في « حضارة العرب » تأليف د . جوستاف لوبون : ترجمة عادل زعيتر ط ٤ - الحلبي .

في ص ١٠٢ : يقول ان محمدا سافر مع عمه الى سورية مرة وتعرف في بصرى براهب نسطورى في دير نصراني ، وتلقى منه علم

التوراه • ولما فوضت خديجة أمور تجارتها اليه وتوكلت له السفر الى سورية اجتمع مرة ثانية بالراهب الذي اطلعه على علم التوراه سابقا •

الرواية في « تاريخ العرب العام » : تأليف ل • ١٠ • سيديو : ترجمة عادل زعيتر •

في ص ٦٦ : كان أول سفره الى الشام مع عمه ابي طالب في ٨٢٣ م فبلغ بصرى فاجتمع فيها ببخيرا الذي كان اسمه لدى النصارى جرجيس أو سرجيس فقال حظوة عنده •

الرواية في « حياة محمد » : تأليف اميل درمنغم : ترجمة عادل زعيتر •

في ص ٢٤ : لما وصلت القافلة بصرى ، نزلت بها قرية من صومعة نسطورية وفيها اجتمع محمد بالراهب العالم بخيرا • وفي كتب السيرة ان هذا الراهب رأى محمدا هو النبي العظيم المنتظر على ما علمه في كتبه • ويتساءل المؤلف فيقول : وهل اخذ الشباب القرشي محمد يقابل بين الروم والعرب وبين التوحيد والوثنية ؟ وهل بدأ يفكر في المسائل الدينية التي ستشغل ذهنه وتستولى على حياته ؟ وهل صار يشك في معتقدات بيئته الغليظة ؟!

الرواية في « حياة محمد » تأليف واشنطن أرفنج :

ترجمة د • علي حسنى الخربوطلى

في ص ٤٧ : يروي الكتاب المسلمون - كعادتهم - كثيرا من الروايات العجيبة عن رحلة الشاب التي تدل على ان العناية الالهية تحيط به دائما ، ففي خلال سفره في هذه الصحراء المحرقة كان ملاك غير مرئي يظلمه بأجذعته ، وبعد فترة كانت سحابة تحلق دائما فوق رأسه تحميه من حرارة الشمس في الظهيرة ، حتى اذا جلس في ظل

شجرة يحمى بها من الشمس نبتت أغصان وأوراق جديدة تزيد من حماية الشجرة له •

وصلت القافلة الى بصرى على حدود سوريا قرب الأردن ، وكان يسكنها حينئذ النساطرة المسيحيون • وتوقفت القافلة قرب دير من اديرة الرهبان النساطرة ، واستقبل الرهبان أبيا طالب وابن اخيه بترحيب عظيم • تحدث أحد الرهبان ، ويسميه البعض سرجيس ويسميه البعض الآخر بخيرا مع محمد ، وأعجب كثيرا بعقليته ورغبته في الاستزادة من العلم وبخاصة في المسائل الدينية ، وتبادل الراهب مع محمد الحديث في عدة مواضيع ، ولاشك أن الراهب قد وضع همه في القضاء على تعاليم الكفر التي تلقاها الشاب ، وكان النساطرة المسيحيون يتهنون عن الصور والتماثيل ، بل ان الصليب وهو شعار المسيحية كان يدخل ضمن ما ينهى النساطرة عنه •

ينسب الكثيرون معلومات محمد عن الدين المسيحي الى محادثاته مع ذلك الراهب ، وقد لعبت هذه المعلومات دورا كبيرا في حياة محمد فيما بعد • وينسب الكتاب المسلمون اهتمام الراهب بهذا الشاب الغريب الى أنه لاحظ بين كتفيه خاتم النبوة ، ولذا طلب الى عمه ابي طالب أن يحافظ على ابن اخيه عند عودته الى مكة حتى لا يقع في أيدي اليهود فيروا خاتم النبوة فيوقعون به الاذى •

يبدو ان ذلك الراهب الحريص على التبشير بدينه قد توسم الخير في هذا الشاب الذكي ابن أخى سادن الكعبة ، ورأى أنه خير من يحمل بذور المسيحية الى مكة ، ومن الطبيعي أن يحرص هذا الراهب على أن يمتن ذلك الشاب الذي قد ينجح في تحويله الى المسيحية من اعتناق اليهودية •

عاد محمد الى مكة وقد تأثر خياله بالقصص والروايات التي سمعها في الصحراء ، وأحاديث ذلك الراهب النسطوري • وكان

محمد ينظر الى بلاد الشام نظرة احترام وتقدير ، فهي الأرض التي احتمى ابراهيم بها ، وفيها تاكد ان الله هو الواحد الحق ، وكان محمد يقول دائما عن بلاد الشام انها الأرض المباركة ، وان الله قد بارك أهل الشام ، ولذا تقرر الملائكة اجنحتها عليهم .

نكتفى بهذه النماذج لتلك الرواية العجيبة ، ونوضح النقاط الآتية :

١ - التناقض في الروايات واضح ، فبحيرا من يهود ثيماء ، كما جاء في بعض سير الزهري ، وعند ابن اسحاق هو نصراني . والسعودي في مروج الذهب كان نصرانيا من عبد القيس ، والرحلة كانت مع أبي طالب ، والرحلة مع أبي بكر ، والرحلة وهو في سن التاسعة ، والرحلة وهو في سن الثانية عشر أو الثالثة عشر ، وأبو بكر هو الذي يتوجه الى الراهب في رواية ، وبحيرا هو الذي ينزل في رواية ، والراهب مجهول الاسم في رواية ، والراهب سرجس أو جرجيس أو سرجيس في رواية ! والراهب يحضر أبا طالب من الروم في رواية ، والراهب يحضر أبا طالب من اليهود في رواية ! وعدد الروم ثلاثة في رواية ، وعددهم سبعة في رواية ، وتسعة في رواية أخرى (١) ، وغمامة تظله في رواية ، وعلاك يظله في رواية ، ويستظل بشجرة في رواية .

٢ - واضح ان القصة مخترعة واذا صريح ، وقد استغلبا أعداء الاسلام فزعموا انه صلى الله عليه وسلم اقتبس دينه مما تعلمه من رهبان النصارى وأخبار ال يهود ، وأنهم حتى يعلو قدر هذا الراهب الذي زعموا انه علمه ، احاطوا هذا الراهب بأسطورة غريبة مضحكة فجعلوه خير أهل الأرض !! ولو أنها - القصة - حدثت لتواتر خبرها وانتشر في مكة وما حولها من القرى : فالقصة تقول ان مقابلة بحيرا للنبى كانت وهو ضمن قافلة تجارية أى لم

يكن بمفرده ، وان الحديث كان امام شهود من أهل مكة ، وان الحديث كان ماما وخطيرا أو غريبا لا يمر عليه السامع من الكرام ، فقد أعلن بحيرا - كما تزعم الرواية - انه سيكون سيد العالمين وان الله سيبعثه رحمة للعالمين ، وانه لفت نظر أفراد القافلة الى الغمامة التي كانت تظله والشجرة التي تهصرت ومال فيؤاها عليه .

٣ - ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بنص القرآن لم يكن هو نفسه يعرف عن أمر نبوته شيئا قبل ان ينزل الوحي ، والآيات التي جعلت آيات له - كما ورد في القرآن والتوراة والانجيل - لا تتعلق بصفات جسمية مثل خاتم النبوة واحمرار العينين وغير ذلك ، وانما تتعلق بحقيقة الرسالة وأهدافها كما جاء في قول الحق سبحانه وتعالى « الذين يتبعون الرسول النبى الامى الذى يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم الخبائث ويضع عنهم اكسرهم والاغلال التي كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون » ( الاعراف ١٥٧ ) .

٤ - الشجرة التي استظل بها الرسول لم تكن شجرة عادية يستظل بها أى عابر سبيل ، انما هي شجرة مخصوصة لا يستظل بها الا الأنبياء ، وان يسيرا هذا وأجداده كانوا يراقبونها منذ ان استظل بها عيسى عليه السلام وحتى جاء محمد صلى الله عليه وسلم ليستظل بها ، والتاريخ يقول ان الفترة بين الاثنين كانت اكثر من ستمائة سنة ( كما جاء في البخارى عن سلمان ) فأى شجرة هذه وأى كاهن هذا !!! والشجرة ما جدواها لمن كانت تظله غمامة أو جناحا ملك أينما سار !

٥ - هذا واذا كان المستشرقون قد تناولوا هذه السفارة الى الشام كما تناولوا سواها وغيرها من الاحداث التي ارتبطت بتاريخ الرسول ( ص ) وذهبوا في تأويلها المذهب ، فأنكروا بعضهم

(١) انظر بوجه الحافل وبغية الامثال - عماد الدين بن يحيى بن ابي

ولا من عاومه الا ما تيسر له أو أبصره بنفسه ، أو وصل الى سمعه في ظلمات صحراء العرب .

كما ذكر الكونت هنري دي كاستري في كتابه « الاسلام خواطر وسوانح » انه ثبت أن محمدا ( ص ) لم يقرأ كتابا مقدسا ، ولم يسترشد في دينه بمذهب متقدم عليه ، وقال « ان أصل الاعتقاد في الاسلام بالله فرد ورب صمد منزّه عن النقائص ، وهو اعتقاد قوى يؤمن به المسلمون على الدوام ، ويمتازون به عن غيرهم ، ويستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل الى النبي صلى الله عليه وسلم من مطالعته التوراة والانجيل : ان لو قرأ تلك الكتب لردّها لاحوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف لوجدانه منذ خلقته فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو اعظم مظهر في حياته وهو بذاته اكبر دليل على صدقه في رسالته وأمانته في نبوته » (٣) .

ويقول فرانز روزنثال « ان الدين الاسلامي الذي يشهر به الرسول كان متميزا بالموضوح ، والقدرة على تفهم أسس هذا الوجود بصورة واضحة جدا ومن غير تعسف ، والواقع أن مفاهيم الاسلام أوضح وأقل جمودا من ناحية العقيدة من مفاهيم اليهود والنصارى الدينية . وإذا كان الرسول قد سمع بعض الأخبار والمعلومات التاريخية فإن هذا لا يبرر الافتراض بأن الرسول قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة في ترجماتها العربية » (٤) .

وتضيف قول المرحوم د . محمد عبد الله دراز عن تلك القصة فيقول « وسوف لا نعمل على قصة بحيرا الراهب ، فالصواب يمنعنا من الأخذ بهذه المقابلة العارضة واعتبارها مصدرا لتعليم محمد ، لأن الحادثة إما انها أسطورية أو يتعين علينا أخذ كل الوقائع التي

(٣) الاسلام خواطر وسوانح - تأليف الكونت هنري دي كاستري ترجمة احمد فتحى زغلول ص ١٨ .  
(٤) علم التاريخ عند المسلمين - فرانز روزنثال - ترجمة د. سالم احمد العلي ص ٢٩ - ٤١ .

وأشار الآخرون الى أهميتها وخطرها ، وكيف أن محمدا قد وفق فيها الى استماع أحاديث بعض الرهبان ، وخرج منها بعلم وفير وخير كثير يتصل بالحياة الدينية في عهده وعبادة الأصنام في بلده ، وإذا كانوا يريدون أن يلقوا في روعنا أن هذا الكاهن أو الحبر كان له الفضل في تلقين محمد أساس الدين الاسلامي والرسالة المحمدية فإن ذلك منتهى الاستهانة بالعقول فكيف يستطيع صبي مهما بلغ نكاؤه ، واستطارت عقبريته بمثوثر على تفهم هذه الأسرار المتصلة بالحياة والدين وهو ما يزال في التاسعة من عمره أو الثانية عشر وفي مدة قصيرة لا تتجاوز تناول وجبة طعام أو حتى يوم كامل استراحت فيه القافلة !! . ان هذا الاتصال مع بحيرا أو مع غيره أقرب الى الخيال منه الى الحقيقة ، وانه مختل الرواية ، مضطرب الأسباب ، وإذا كان قد توفر لحمد في سفره تلك أو غيرها من الأسفار بعض المعرفة بعقائد النصرانية واليهودية في زمنه فإن هذه المعرفة لا تعدو الصور الخارجية ، يراها المرء فيرى لونا جديدا ليس يفهمه ويعهده ، ولكنه لا يوفق الى تفهم ما فيها من أسرار هي دون شك عسيرة كل العسر على من كان مثله وفي سنه ، وقد عزم « دوزي » في كتابه عن « تاريخ الأندلس » الى هذه الأسرار فمثل المسيحية في الجزيرة العربية ، لأنها بما تحويه من أعاجيب وتعقيدات ومعجزات ، وبما فهدا من عقيدة التثليث لم تكن تنعم بما يساعدها على الانتشار في الجزيرة ، ولا بما يمكنها من التأثير في نفس العربي على الوجه الأكمل والأوسع ، وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها الا معرفة سطحية .

كما أنكر « توماس كارليل » وغيره من مشاهير الكتاب هذا الزعم وقالوا انه تغريب ، وانه بعيد عن الحقيقة ، لأن محمدا في رأيهم لا يستطيع أن يتفهم هذه الأسرار في مثل هذه السن ، كما أكد كارلايل أن محمدا لم يتلق دروسا على استاذ ابدأ (٢) ولم يعرف من العالم

(٢) الايطال تأليف توماس كارلايل ترجمة محمد السبام ص ٦٩  
طبعة الهلال .

نذكرها في الحسبان ، وحينئذ نجد أن القصة تذكر أن هذه المقابلة كانت في حضور جميع أفراد القسافة ، وأن محمداً كان دوره « مسؤولاً » لا مستمعاً ، وبانتهاء الاستجواب خلص الراهب إلى نبوءة مضمونها توقع بعثة هذا الشاب رسولا في المستقبل ، أن الفكرة إذن تغند نفسها (٥) .

ويقهر هوارت Huart فيقول : مهما كان اغراء الفكرة التي تقول بأن تفكير المصلح الشاب محمد قد تأثر بقوة عندما شاهد الديانة المسيحية بسموريا ، فإنه يتحتم استبعادها نظرا للضعف الأسس التاريخية للوثائق التي كانت أمامنا وعدم وجود روايات صحيحة غيرها (٦) .

ويقهر المستشرق د . لاس أوليري الذي قدم بحثا مفصلا دقيقا في هذه المواضيع في كتابه « علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب » يقول : من الیهتان ما شاع عن القول أن النبي سمع من هؤلاء قصص التوراة التي تحتل مكانا بارزا من القرآن (٧) .

ويقول جورج كيرك أن محمدا بدأ دعوته الدينية سنة ٦١٠ م ولم يكن له بطبيعة الحال معرفة مباشرة بكتب اليهود والنصارى المقدسة ، إذ لم تكن قد ترجمت بعد إلى اللغة العربية وهو لا يعرف لغة سواها (٨) .

(٥) انفسها د. محمد ابراهيم الفيومي في كتابه « الفكر الديني الجاهلي » ص ٩٣ من كتاب « مدخل إلى القرآن » ص ١٣١ .

(٦) في الفكر الديني الجاهلي - د. محمد ابراهيم الفيومي ص ٩٣ .

(٧) من مطبوعات الالف كتاب - ترجمة د. وهيب كامل مراجعة

ذكرى على ص ١٢٧ و ١٢٨ .

(٨) موجز تاريخ الشرق الأوسط من ظهور الاسلام إلى الوقت الحاضر

ترجمة عمر الاسكندري ص ١٦ .

٦ - على احتمال أنه تعلم من بحيرا أو نسطورا أو استمع اليهما فيأثرى أى شيء تعلمه منهما ؟ وعقيدة أى مذهب ؟ هل العقيدة النسطورية أو عقيدة مذهب الطبيعة الواحدة بمشيتين أو الطبيعة الواحدة بمشيتة أو الطبيعيتين بمشيتتين أو عقيدة اتباع اوليخوس أو عقيدة اليعاقبة أو غير ذلك من العقائد والمذاهب التي كانت منتشرة في ذلك الزمان ؟ ثم ماهى المدة الزمنية التي تكفى الاحاطة بالمسيحية ؟ لقد وصف «جورج سيل» مترجم القرآن إلى اللغة اللغة الانجليزية حالة المسيحية في ذلك الزمان باختلال الأحوال، وكثرة المناقشات التي لا تكاد تنتفضى ، وأنه قد انتقض حبليها بمحاكاة الاريسيين والنسطورة واليعاقبة وغيرهم من أهل البدع - وكان هذا هو وصف رجل منعصب على الاسلام لا يهتم بمحاياته ، و يظن به بأنه يتحامل على المسيحية - ومن الواضح المبين أن عقائد المسيحية على ذلك النحو لم تكن مما يغرى بالاعجاب أو مما يدعو إلى الاقتداء (٩) .

٧ - اذا استحضرنا مرة أخرى ما كتبه بودلى عن القصة ، ثم ما كتبه بعد عدة صفحات من نفس الكتاب « الرسول : حياة محمد » نجده يقول في ص ٧٧ « يرجع اخفاق محمد في قبول اليهود والمسيحيين له ، أو على الأقل في تنظيم صفوفهم معه : إلى مثله العليا ! تارة ، وإلى عدم معرفته دينانهم معرفة تامة تارة أخرى » .

أمر غريب حقا ! أيمن أن تكون المثل العليا سببا في نفور الناس إلا أن يكونوا غير أسوياء ، وفي ضلالهم يعمهون ! والأغرب من ذلك أن الرجل قد ادعى أن محمدا تثقف وتعلم على يد كاهن ، أى أنه ارتوى من الذبح النصراني ، اذا فإن الامر الطبيعى أن يقترب المسيحيون واليهود منه لأن يبتعدوا عنه لأن الوحدة الثقافية تحدث التقارب وليس التباعد .

(٩) حقائق الاسلام وابطال خصومه - عباس محمود العقاد ص ٥٤

ط الهلال .

ثم انظر اليه يقول في نفس الكتاب أيضا في صفحة ٢١٦ « وقد ظلت كيفية معرفة محمد بالتوراه والانجيل امرا غامضا ، وهناك هذه الترجمة التي تعزى الى ورقة بن نوفل ، ولكن ليس هناك أقل شاهد على أن محمدا قد اطلع عليها ، وكان حديثه مع ورقة يتعلق بعموميات اللاهوت ، وأن السبب الأولي الذي يؤكد عدم اطلاعه عليها أن ورقة قد مات قبل أن يبدأ محمد في تدوين ما أوحى به جبريل اليه ، وقبل أن يبدأ في تنسيق القرآن بكثير . وأول طبعة عربية للعهد القديم نشرت بعد المسيح بتسعة قرون أى بعد موت محمد بما يقرب من ثلاثة قرون ، وأن أول طبعة رسمية للعهد الجديد قد ظهرت بعد ذلك بقرنين ! ولم يكن كل ذلك في نظره كافيا لينفي عن محمد اطلاعه على التوراة والانجيل ، بل انه يعود ليضع جرعة من السم في الدسم فيقول « وللعرب ذاكرة مدهشة ، فمن الممكن أن محمدا كان قادرا على أن يختزن في عقله كل ما سمعه خلال رحلاته ، وأن هذا ليسو عملا خارقا ، ولكن هو التفسير الممكن الوحيد ، الا اذا قبلنا صراحة أن القرآن وحى من السماء » .

وهكذا يناقض الرجل نفسه .. وهكذا يفكرون ، ولا غرابة في ذلك فالرجل ككل الباحثين في الاديان من الغربيين الذين يصطنعون سمة العلم يطلقون نعتهم على الاسلام سماعا غيما يظهر من مقرراتهم أو من مكرراتهم التقليدية التي لا يبدو منها أنهم كلفوا عقولهم أى جهد لتلم المامة واحدة بهذا الدين في جملة أو تفصيل ، بل ربما فاقهم هذا الرجل بخبثه ولؤمه ، فهو يلبس الباطل بالحق .

نعم لا غرابة في ذلك فالرجل أوربي يملأ الحقد على الاسلام قلبه . ولقد شرح ذلك واحد منهم هو الاستاذ النمساوي « ليوبولد فايس » الذي أسلم وتسمى باسم « محمد أسد » ودرس الاسلام والقرآن والسنة والشريعة ، وأثار الايمان قلبه ، وألف كتابه « الاسلام على مفترق الطرق » قال فيه أن أوربا قد ورثت عن اليونان والرومان نظرتهم الى أنفسهم على أنهم هم وحدهم المتمدينون ، أما

كل من كان أجنبيا عنهم وعلى الأخص أولئك الذين كانوا يعيشون شرق البحر المتوسط فقد حادوا يطلقون عليهم لفظ « البرابرة » ومند ذلك الحين والأوربيون يعتقدون أن تفوقهم العنصرى على سائر البشر امر واقع . ثم أن احتقارهم الى حد بعيد أو قريب لكل مالميس أوربيا من اجناس الناس وشعوبهم قد أصبح إحدى الميزات البارزة في المدنية الغربية .

على أن هذا وحده لا يكفي لاطهار ما يكتنه الأوربيون نحو الاسلام خاصة وهنا فقد ( معنى غيما يتعلق بالاسلام ) لا تجد موقف الأوربي موقف كره في غير مبالاة فحسب كما هي الحال في موقفه من سائر الاديان والتفاعلات بل كره عميق الجذور يقوم في الاحتر على التعصب الشديد . وهذا الكره ليس عقليا فحسب ولكنه يصطبغ أيضا بصبغة عاطفية قوية . فقد لا تتفعل أوربا تعاليم الفلسفة البوذية أو الهندوكية ولحنها تحتفظ دائما قيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف على مقزن ومبني على التفكير ألا انها حالما تتجه الى الاسلام يفشل التوازن ويأخذ الميل العاطفي بالتسرب حتى أن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم مريسة التحزب غير العلمى في كتاباتهم عن الاسلام .

وعلى الجملة فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين تنكرنا بوجهات دواوين التفقيش ، تلك الدواوين التي أنشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى ، أى أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبدا أن نظرت في القرائن التاريخية بتجرد ، ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه من قبل ، قد أملاء عليها تعصبها لرايها ، ويختار المستشرقون شهودهم حسب الاستنتاج الذي يقصدون أن يصلوا اليه مبدئيا ، وإذا تعدد عليهم الاختيار العرفي للشهود عمدوا الى اقتطاع اقسام من الحقيقة التي تشهد بها الشهود الحاضرون ثم فصلوها من المتن أو تأولوا الشهادات بروح غير علمى من سوء القصد من غير أن يحسبوا قيمة ما الى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر أى من قبل المسلمين أنفسهم .

ويستثمر الأستاذ محمد أسد فيقول : وليسست نتيجة هذه المحاكمة سوى صورة مشوهة للإسلام وللأمور الإسلامية في جميع ما كتبه مستشرقوا أوروبا ، وليس ذلك قاصرا على بلد دون آخر : أنك تجده في إنجلترا وألمانيا ، في روسيا وفرنسا ، في إيطاليا وهولندا ، وبكلمة واحدة في كل صقعة يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام ، ويظهر أنهم ينتشرون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم غرضة - حقيقية أو خيالية - يتناولون بها من الإسلام عن طريق النقد ، وبما أن هؤلاء المستشرقون ليسوا سلالة خاصة ولكنهم طلائع مدنيتهم وطلائع بيتهم الاجتماعية فأغلبا من أجل ذلك يجب أن نصل بالضرورة إلى أن نستنتج أن الفلن الأوربي على العموم - لسبب ما - ميلا عن الإسلام بما هو دين وبما هو ثقافة - إن سببا واحدا لذلك يمكن أن يعزى إلى الأثر الذي قسم العالم يومذاك «أوروبيين وبرابرة» وأما السبب الآخر وهو أشد صلة مباشرة بالإسلام فيمكننا متابعتها إذا أولينا أبصارنا شطر الماضي وخصوصا إلى تاريخ العصور الوسطى (١٠) ، والحروب الصليبية ، تلك الحروب التي غذتها دعايات كاذبة ، ومفتريات طاملة عن الإسلام والمسلمين يرددونها حتى في أغانيهم وأناشيدهم وقرانيمهم الكنسية . إنها أبحاءات يومية ، ورسوسات متوالية تلج على النفس حتى تصبح يقينا لا يترجح وعقيدة تترسخ ، وعادة ينقلها السلف إلى الخلف .

وننقل ماكتبه المستشرق جوستاف أ . فون جرونباوم في كتابه « حضارة الإسلام » (١١) يقول : يحدثنا يوحنا الدمشقي (٦٧٦ - ٧٥٦ م) الذي ألف كتابا في « مباحثة بين مسلم ومسيحي » الذي يتناول الإسلام على أنه فرقة مسيحية مارقة ( كذا ) ، وكيف أنه حدث في أيام الامبراطور هرقل أن ظهر بين العرب مقنّبى اسمه

(١٠) الإسلام على مفترق الطرق - تأليف محمد أسد ترجمة د. عمر فروخ ص ٥٠ وما بعدها .

(١١) ترجمة الأستاذ عبد العزيز توفيق جاويد ، والأستاذ عبد الحميد العبادي - مجموعة الألف كتاب ص ٦٥ وما بعدها .

« مامد » وأنه أطلع على كتب العهد القديم والجديد ، ثم ما لبث بعد أن اتصل براهب من أتباع أريوس أن أسس نحلته ( كذا ! ) وقد استطاع بالتظاهر بالتقوى ( كذا ! ) أن يكتسب قلوب قومه . ثم أخبرهم بعد ذلك أن كتابا مقدسا قد أنزل إليه من السماء يشتمل على تعاليمهم المقدسة ، وقدم إليهم الفرائض المضحكة ( كذا ! ) التي وضعها في ذلك الكتاب قائلا أنها شريعتهم المقدسة .

وكان أول مؤرخ بيزنطي عالج أمر محمد هو ثيوفانيز المعترف ( المتوفى ٨١٧ م ) الذي قدر لكتابه « حياة محمد » أن يكون مرجعا هاما لمن تلاه من الكتاب ، وعن سوء الحظ أن ثيوفانيز هذا لا يبين مراجعة التيأخذ عنها واليك ما قاله :

« في هذه السنة ( عام ٦١٢ من بدء الخليقة المقابل ٦٢٢ م ) توفى محمد حاكم العرب ونبئهم بعد أن عين قريبيه أبابكر خليفة له . وفي نفس الوقت كان الخوف مستوليا على الجميع . وعند بداية ظهوره ظن العبرانيون الضالون أنه المسيح الذي كانوا يتوقعون ظهوره . لذلك انضم إليه بعض كبارهم وتقبلوا دينه وهجروا دين موسى الذي رأى الله جهره ، والذين فعلوا ذلك كانت عدتهم عشرة ، وقد لازموه حتى لقي نهايته . ثم عدلوا عن رأيهم عندما راوه يأكل لحم الجمل ( كذا ! ) . إذ أدركوا أنه ليس ماظنوه أولا ، فتجنّبوا ولم يعرفوا ماذا يصنعون ، وخاف النعساء من الارتداد عن دينه ، فرمونا نحن المسيحيين بتهم السلوك غير المشروع ، وواصلوا مناصرتهم » . ثم يقول ثيوفانيز : ولما كان محمد المذكور فقيرا ويطما فإنه قرر أن يربط نفسه بأمرأة ثرية من ذوي قرابه . هي خديجة ، بأن جعل من نفسه وكيلها لقاء أجر يتناوله . ويتولى شؤون أبائها ، ويقوم بأشغالها في مصر وفلسطين . وأم يخص طويل زمن حتى فاز بربها ، وكانت أيضا ، بفضل طرافقة الصريجة فانتخدها له زوجة ، وبذلك حصل على أبائها وماتت مملكتها . وقد اختلط في فلسطين باليهود والمسيحيين ، وبواسطتهم حصل على بعض الكتب المنزلة . وأخيرا كذلك بمرض عسرسي ( كذا ! ) . فلما علمت

« أعلموا أنه في سنة ٦٢٠ من تاريخ الرب جاء الشيطان بأفن الله ونشر بدعة المحمدين بالطريقة الآتية ، فأولا فتن الصير سرجيوس الذي كان من طائفة القديس ( بنوا ) وطرد منها لاعتناقه بدعة نسطوريوس . وبعد أن غتته انقذه الى مقام الملك في روما لينال بعض الوظائف الندينية ، ولما لم ينل مراده ، ويس من النجاح قفل الى بلاد العرب ، ونزل في بني هاجر وهم بنو اسماعيل الذين سموا أنفسهم ( سرازيين ) فافخروا بفسارة التي كانت بنت اسماعيل ، ولكن هذا الاسم لا يليق بهم ويجب أن يطلق عليهم عنوان ( الماغومدين أي المحمدين ) تبعا لاسم « ماومد » التي اغترت به تلك الطوائف الخشنة التي تسكن الصحراء . ولما صار سرجيوس المذكور في تلك البلاد وجد رجلا جاهلا أعمق اسمه « ماغومد » ( أي محمد ) وأثر عليه حتى اعتقد في نفسه أنه نبي ووضح له بعض البقول في أذنه اليمنى وعلم حمامة فصارت تأتي كل يوم فتقف على كتفه وتلقط الحب منها ، ثم جعل سرجيوس يدعو في الناس بأن الله اختار نبي هاجر وكانوا في ذاك الحين أحقر الأمم وأزذلهم ، وأراد أن يخرج من بينهم نبي الأنبياء وأن روح القدس سيناجيه أمام الناس في «سورة حمامة» ، فصدقوا ، ولما صار « ماغومد » ( محمد ) وسطهم أطلق سرجيوس الحمامة وكانت على سنب ، فطارت الى كتفه وجعلت تلتقط الحب من أذنه فأشار إليه سرجيوس أنه هو النبي المرسل من قبل الله لأمته ، ولم يكن أحد ما يعرف « ماغومد » وهو نفسه ما كان يعرف عائلته بل وجدوه لقيطا في الصحراء فأواه بعض الأعراب وربوه حتى صار من رعاة الإبل ، ولكونه كان مسيولاً عند الناس ظنوا أنه نزل من السماء .

ثم انتشر صيغته جدا حتى صار الناس يفدون عليه في كل يوم من اقاصي البلاد ، وعند ذلك اجتهد سرجيوس في اقناع امرأة من العرب اسمها ( كندوكاجيا ) أي خديجة ( فتزوجت « ماغومد » واستعمل « ماغومد » الغلظة والفش حتى أخضع الأمة بتمامها لسلطته . ثم أصابه داء الصرع انتقاما من عند الله ، وكان كلما يثأبه الدور يقول إن السبب في ثأله ناشىء من محادثته مع ملك من

زوجته بأمره حتى في نفسها أنها وهى العزوبة الأسفل قد أصبحت اليوم مرتبطة بأنسان لا يقتصر أمره على أنه فقير بل هو أيضا مريض ( كذا ! ) فراح يهدئها بقوله : انى تلم بى رؤية ملك من الملائكة ، اسمه جبريل ، ولما كنت لا أقوى على تحمل مرأه فأتى تخور قواى واقع على الأرض . وكان يقيم بتلك النواحي راهب ، كان قد نفى لكفره واتخذته صديقا ، فآخبرته خديجة بكل شيء ، كما أبلغته باسم الملك ، وأراد هذا الراهب أن يقتنعها تماما فقال لها : لقد قال الصديق . فما ذاك الملك إلا الناموس الذى يرسل الى النبيين كافة . حتى اذا قبلت خديجة أقبال الراهب الزائف وفسدتها ، أعلنت لنساء عشيرتها الاخباريات أن زوجها نبي . وهكذا انتشر الخبر من النساء الى الرجال ، فبلغ أولا أبا بكر الذى جعله فيما بعد خليفته من بعده . وانتهى الأمر بأن استطاعت شيعته أو قل فرقته المارقة ( كذا ! ) أن تحصل بالقوة أو بالحرب على السيادة على منطقة يقرب وذلك أنه قضى في البداية عشرين سنوات ينشر دعوته سرا ، ثم قضى عشر سنوات أخرى ينشرها حربا ، وانتهى به الأمر الى إعلانها صراحة وحكم البلاد تسع سنوات ، وكان يعلم أنصاره أن من قتل عدوا أو قتله عدوه فهو داخل الجنة . وكان يصف الجنة بأنها موطن ( سرور ) جسدى وشرب وخمر وعناق للنساء . وأن بها أنهار من خمر ومن غسل ومن لبن ، وأن هناك نساء غير اللواتي لهم اليوم عناقين مديد دائم وله سرور مقيم . الخ . . . ويجب عليهم مع ذلك أن يعين بعضهم بعضا وأن ينصروا المظلوم .

ومثل آخر للاسفاف رواية أو تقرير الفه سائح المانى يدعى « لودوف دى سودهم » بعد أن قام برحلة الى الاراضى المقدسة سنة ١٢٤٢ م أوردتها الكونت هنرى دى كاسترى أيضا في كتابه « خواطر وسوانح » (١٢) ، والرواية عبارة عن نقشة من النقشات المسمومة التى تتساقط من أفواه الحاقدين وأقلامهم يقول التقرير :

(١٢) - خواطر وسوانح - ترجمة احمد فتحى زغلول ص ١٥٢ وما بعدها .

الملائكة ومن ذلك الحين أخذ في سن القوانين المنجسة وتأليف الكتاب المسمى : الترياق ( القرآن ) فكتبه بأعلاء سرجيوس لأنه كان مجردا من كل تربية وتعليم .

انظر مدى المسخ الذى يصيب الحقائق حين تقع كيد الأهواء ، وتلويحها أقوال الغل والحسد والجهل ، وعفاء على التاريخ والعلم كله اذا كانت فيم الحقائق تتناول بهذا الشكل الفوضوى الممجوج .

ونعود الى ما كتبه يودلى فنقول انه لو درس الاسلام حقا بفكر مفتوح ، وبنفس بريئة من التعصب الأعمى لعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن يعرف القراءة والكتابة بالعربية أو بغير العربية ، لو علم ذلك لوفر على نفسه مؤنة البحث في اطلاعه على الكتب والترجمات المزعومة عند ورقة أو بصيرا أو غيرهم .

ولو تعمق قليلا في أبحاثه لعلم « أن الانجيل حتى باللغات غير العربية لم يكن في متناول عامة الناس من المسيحيين واليهود وبالأحرى لدى العرب ، وكانت الآراء القليلة التى كانت متداولة بين عامة الناس وحتى المسيحيين منهم والمأخوذة من التوراة والانجيل غامضة مبهمه وأكثرها يناقض بعضها بعضا حتى لا يصح أن تتخذ أساما لهذه الدقة والاتساع والوحدة والقوة الموجودة في عادة القرآن ( ١٢ )

ثم لو أن الله قد أثار قلبه لهذه الهداه الى « أن ما بين المسيحية واليهودية والاسلام من عناصر متشابهة جسمها القرآن حين قال أن ما نزل على محمد ليس بدعا عما نزل على غيره من الرسل « أنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والبيبين من بعده ، وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ويعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وأتينا داود زبوراً - ورسلا قمصناهم عليهم من قبل ورسلا لم نفسصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً .

( ١٢ ) الاسلام الصراط المستقيم - د. محمد عبد الله دراز وآخرين

٢٥٠/١

١٠٠

رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيماً » ( النساء ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٥ ) . ويصيح كل بحث يحاول أن يبرز عناصر التشابه بين ما نزل من وحى فؤاد من غير أن يدري يدور في فلك الآيات السابقة حين أكدت وحدة وحى السماء وفي نفس الوقت تؤكد دعوى نبوة الرسول وصدق ما قاله ودفع لنوازع النفوس البشرية حين تريد أن تخلق من المتجانسات تنافرا ( ١٤ ) .

٨ - يزعمون أن الكتب الاسرائيلية هي مصدر الأنباء الأولى ، وإن ما جاء في القرآن عنها إنما هو منقول عن تلك الكتب . وقد أثبت القرآن أنه روى عن النبوءات السابقة أخبارا لم تذكر ولم تروى الانشارة إليها في كتب العهد القديم ولا في أقاصيص التلمود وماشابهه من أسانيد ( ١٥ ) . عزز ذلك الكشوف الحفرية في الجزيرة العربية وما بين النهرين . فكيف يساغ بعد ذلك الزعم بأن القرآن قد نقل عن الكتب الاسرائيلية .

٩ - يقول والشنجتون أرفنج - كما سبق أن ذكرنا - أن الراهب حرص على التبشير بدينه ، وحرص على أن يمنح ذلك الشاب ( محمد ) من اعتناق اليهودية .

وتسأل: كان هذا ممكنا ؟ وهل يحرص اليهود على التبشير بدينهم واقناع أحد على الإيمان به والدخول فيه ؟

لقد كان اليهود من أشد الناس تمسكا بدينهم ، وأكثرهم حقا على مخالفي ملذتهم ، فجعلوا شريعة موسى فيهم وحدهم خاصة لهم من دون الناس ، ضمنوا بهذا الخير الذى جاء به موسى من عند الله أن يقال عنه أحد مساوهم شيئا يذتفع به ، مع أن هذا الخير

( ١٤ ) في الفكر الدينى الجامع - د. محمد ابراهيم النيمى ص ٨٨ .

( ١٥ ) علم التاريخ عند المسلمين - فرانز روزنتال - ترجمة د. صالح

احمد العلى ص ٤١ .

يزداد وضاعة والقا كلما اتسعت الدائرة التى يشرق عليها ، وينفذ بشعاعة فيها ، ولكنها كرازه النفس ، وتكون الطبع ، وما غلب على هذه الجماعة من اثره قاتلة وشح لنيم : هى التى جعلتهم يذهبون بشريعة موسى هذا المذهب فيعزلونها تلك العزلة المطلقة حتى كادت تخفق وتذهب بداء ، وحاشا لله ان تجىء شرائع السماء اخذة هذا الاتجاه العكوس فتدير للناس ظهرا ، وتصك في وجوههم وجيها . . والله سبحانه وتعالى يقول « واخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » (١٦) .

وهكذا يتخبط المستشرقون في دعاوهم رمزاعهم ليربرروا ما يفترون .

١٠ - وأخيرا ارى انه من المفيد ان نذكر الكلام اللطيف الذى قاله المرحوم د . محمد عبد الله دراز في هذا الموضوع (١٧) : انه يتساءل عن كيف يعقل ان رجلا رأى علامات النبوة في امرى فبشره بها قبل وقوعها أو آمن بها بعد وقوعها ، تطاوعه نفسه ان يقف من صاحب هذه النبوة موقف المرشد العلم !!

لو كانوا معلمين لأمنوا بأنفسهم بدل أن يؤمنوا به .

وهل كان علم العلماء يومئذ ميذولا لطالديه ، مباحا لسائليه ؟ أو كان حرصهم على هذا العلم أشد من حرصهم على أبنائهم استبقاء لرياستهم أو طمعا في منصب النبوة الذى كانوا يستشرقون له في ذلك العصر !

(١٦) سورة آل عمران - آية ١٨٧ - وانظر التعريف بالاسلام في مواجهة العصر الحديث وتحدياته - لعبد الكريم الخطيب ص ٨ .  
(١٧) النبا العظيم - نظرات جديدة في القرآن ص ٥٠ .

والقرآن الذى يقول عنه الملحدون « ان القرآن هو الأثر التاريخى الوحيد الذى يمثل روح عصره اصدق تمثيل » . وهذه كلمة حق في حدود معناها الصحيح أى ان يمثلها ولا يتمثلها ، وان شئت فقل انه يمثلها اصدق تمثيل ثم يمثل بها انكى تمثيل .

فإذا احتكمتنا الى القرآن الذى رضيه الملحدون حكما بيننا وبينهم فانه يكفيننا مؤونة الجواب عن هذا السؤال ، وما هو ذا يقول لنا : انهم في سبيل الضن بكتبهم وعلومهم لا يتورعون عن منكر فكانوا تارة « يكتبون الكتاب بايديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت ايديهم ويويل لهم مما يكسبون » (البقرة ٧٩) وتارة « يلونون السننيم بالكتاب لئلا يفسدوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله » ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (آل عمران ٧٨) وتارة « يحرفون الكلم عن مواضعه » (المائدة ١٢) ، وتارة يبترون الكتاب فيظهرون بعضها ويخفون بعضها « قل من انزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا وعلمتم ما لم تعلموا انتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرم في خوضهم يلعبون » (الأنعام ٩١) ، وتارة يحاجون بمحفوظهم فإذا قيل لهم « فاتوا بالثبوت فأتوا ما ان كنتم صادقين » (آل عمران ٩٣) بهتوا فلم يجيبوا . وربما جاءوا بها فقروا ما قبل الشاهد وما بعده وسوتوا بكفهم مكان النص المجادل فيه ، كما وقع في قصة الرجم ، فجاء القرآن يرميهم علنا بالبليس والكتمان « يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون » (آل عمران ٧١) بل جاء كاشفا لما ستره مبينا لما كتموه حاكما فيما اختلفوا فيه « يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » (المائدة ١٥) « ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذى هم فيه يختلفون » (النمل ٧٦) : « تالله لقد أرسلنا الى أمم من قبلك فزین لهم الشيطان اعمالهم فهو ولهم يوم ولهم عذاب اليم » (النمل ٦٣) .

وتعود مرة أخرى فنقول لمن يزعم أن محمداً كان يعلمه بشر :  
قل لنا ما اسم هذا المعلم ؟ ومن ذا الذي رآه وسمعه ؟ وماذا سمع  
منه ؟ ومتى كان ذلك ؟ وأين كان ؟

فإن كلمة « البشر » تعني ناس يعيشون على الأرض ، وإيراهم  
الناس غادين ورائدين ، فلا تسمع دعواهم بدون تحديد وتعيين ،  
بل يكون مثل مدعويها كمثل الذين يجعلون لله شركاء لا وجود لهم  
إلا في الخيال والوهم ، فيقال له كما قيل لهم ( قل سمعوه أم تنبئونه  
بمألا يعلم في الأرض أم بظواهر من القول بل زين للذين كفروا مكرهم  
وصدوا عن السبيل ومن يضلل الله فماله من هاد ) ( الزمر ٢٣ )

بل نقول هل ولد هذا النبي في المريخ ، أو نشأ في مكان قصى عن  
العالم فلم يهبط على قومه إلا بعد أن بلغ أشده واستوى ، ثم كانوا  
بعد ذلك لا يرونه إلا أماما ! ألم يولد في حجازهم ؟ ألم يكن يمشي  
بين أظهرهم يصيحهم ويمسيهم ! ألم يكونوا يرونه بأعينهم في حله  
ورحيله ؟ ( ألم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ) ( المؤمنون ٦٩ )

نعم أن قومه قد طوعت لهم أنفسهم أن يقولوا هذه كلمة ( إنما  
يعلمه بشر ) ( النحل ١٠٣ ) ولكن هل تراهم كانوا في هذه الكلمة  
جادين ؟ وكانوا يشيرون بها إلى بشر حقيقي عرفوا له تلك المنزلة  
العلمية ؟ كلا أنهم ماكان يعينهم أن يكونوا جادين محققين ، وإنما  
كان كل منهم أن يدروا عن أنفسهم معرفة السكرت والاقحام بأي  
صورة تتفق لهم من صور الكلام : بالصدق أو بالكذب ، بالجد أو  
باللعب !

وما أدراك من هو ذلك البشر الذي قالوا إنه يعلمه !

انحسب أنهم اجتمعوا أن ينسبوا هذا التعليم لواحد منهم ؟  
كلا فقد رأوا أنفسهم أوضح جهلاً من أن يعلموا رجلاً جاءهم بمالم  
يعرفوا هم ولا آبائهم . أم تحسب أنهم لما وجدوا أرض مكة مقفرة  
من علماء الدين والتاريخ في عهد البعثة المحمدية عمدوا إلى رجل

من أولئك العلماء في المدينة أو في الشام أو في غيرها فنبسبوا ذلك  
التعليم إليه ؟ كلا أن السنتهم لم تطاوعهم على النطق بهذه الكلمة  
أيضاً ، فلن يصدقها أحد لئبدها عن الواقع والممكن . إذا ماذا ؟

لقد وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتصقوا بشخصا يتحقق فيه  
شرطان : أحدهما أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى  
أنه يلافية ويعلم عليه بكرة وأصيل ، وثانيهما أن يكون من غير  
جلدتهم وملتهم ليمكن أن يقال إن عهده علم ما لم يعلموا ، وقد  
التصقوا هذه الأوصاف فوجدوها . . . أتدري أين وجدوها ؟ في حداد  
رومي !!

نعم وجدوا في مكة غلاما تعرفه الحواثيث والأسواق ، ولا تعرفه  
تلك العلوم في قليل ولا كثير . . . غير أنه لم يكن أميا ولا وثيا مثلهم  
بل كان نصرانيا يقرأ ويكتب ، فكان من أجل ذلك خليقا في زعمهم أن  
يكون استاذنا لمحمد ، وبالتالي استاذنا لعلماء اليهود والنصارى  
والعالم أجمعين . ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغا لدراسة  
الكتب وتمحيص أصيلها لا دخلها ورد متشابها إلى محكمها ،  
وهل كان مزودا في عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهم ، لعرفت أنه  
كان حدادا منهمكا في مطرقته وسناده ، وأنه كان عامي القواد  
لا يعلم من الكتاب إلا أمانى ، أعجمى اللسان لا تعدوا قراءته أن  
تكون رطانة لا يعرفها محمد ولا أحد من قومه ، لكن ذلك كله لم يكن  
ليحصل بينه وبين لقب الأستاذية الذي منحوه إياه رغم أنف  
الحاسدين .

« وقد يجيز العقل أن يستدين فقير من غنى ، وأن يستعين  
ضعيف بقوى ، وصور التعاون بين الأفراد وصور الاقتباس  
والاستعارة والاستفادة بين شتى الحضارات والجماعات الإنسانية  
معروفة في التاريخ القديم والحديث ، غير أن العقل يحكم باستحالة  
التلاقي والاستمداد يوم يكون التكافؤ معدوما بين الطرفين ، فمن  
الحماقة أن يقال إن أرسطو أخذ أفكاره من أحد الخبازين في أفران  
أثينا أو أحد الخمارين في حاناتها ، ومن الحماقة أن يقال إن فورد

أخذ ثروته من متسول في إحدى كنائس أمريكا ، ومن الصداقة أن يقال أن محمدا ألف قرآنه بمعونة أحد الخوارج النازحين إلى مكة يطلبون الرزق !!

إن هذا البيان الساحر بفحواه ، القاهر بيميناه ، يعجز العرب الأثمة عن الاتيان بآية مثله • فكيف بنزاج أعجمي !!؟ ( ١٨ ) •

وهكذا ضاقت بهم دائرة الجد فما وسعهم الا فضاء النزل • وهكذا أمعنوا في مهزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل ، فكان مثلهم كمثل من يقول إن العلم يسقي من الجول ، وإن الانسان يتعلم كلامه من اليبغاء ! وكفى بهذا هزيمة وقضية لقائله ( لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ) ( النحل ١٠٣ ) •

نعم انهم رأوا في هذا الأسلوب من حلاوة الفكاهة والملحة ما يسبغ مرارة الزور والباطل ، ورأوا في هذه الصورة الخيالية من التهكم والسخرية ما يشفي صدورهم ويجعلهم يتضحكون بملء أفواههم • ولكنهم ما دروا أن في طي هذه السخرية سخرية بهم • وأنهم شهدوا على أنفسهم أنهم أجهل الأمم ، وأن كل غريب عنهم - ولو كان غلاما سوقيا - أهل لأن يقال عنه أن عنده من العلم ما ليس عندهم ، فيأله من نطق كان المي في موضعه خيرا لهم وأستر عليهم ، ويأله من سلا ح أرادوا أن يجرحوا به خصمهم فجرحوا أنفسهم من حيث لا يشعرون •

أما الحق الذي كانوا يخاضونه فقد والله زادوه بهذا الاتهام قوة إلى قوته ، ذلك أنهم حين خرجوا يلتمسون واحدا من البشر يمكن أن ينسب إليه هذا العلم الحمدي لم يستطيعوا أن يفترضوا له مصدرا تعليميا خارج حدود قريته ، بل كان آخر جهد بذلوه من حياتهم وآخر سهم رموه من كنانتهم أن جاءوا من بين ظهرانيهم

( ١٨ ) دفاع عن العقيدة والشرعة ضد مطامع المستشرقين - محمد الغزالي

ص ٨٧ •

١٠٦

بهذا الغلام الذي عرفت خبره • فبأنيت شعري لو كان لهذا الغلام أن يكون مرجعا علميا كما أرادوا أن يصفوه فما الذي منعهم أن يأخذوا عنه كما أخذ أصحابهم ؟ وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويدأبونه من جنس دأبه ، بل ما منع ذلك الغلام أن يبدي للعالم صفحته فينال في التاريخ شرف الاستاذية ، أو يتولى بنفسه تلك القيادة العالمية ؟ !

وبأنيت شعري لماذا لا ينسبون تلك العلوم الغريبة عنهم إلى أهلها الموسومين بها من الزبانيين والاحبار في المدينة أو من القسيسين والرهبان في الشام ، أولئك الذين قضوا أعمارهم في دراستها وتعليمها ؟ ليس ذلك - لو كان ممكنا أو شبيها بالممكن - كان هو أحسن تليقا وأجود سبكا وأدنى إلى الرواج ، وأبعد عن الإحالة من نسبتها إلى حداد مكة ؟ أم ضاقت بهم الأرض فلم يجدوا أحدا أمثل منه ولا أعلم بالدين والتاريخ ؟ تالله لولا أنهم وجدوا باب التعليم الخارجى أمتع سدا من سائر الأبواب ، وأدخل منها في معنى المكابرة التي تروج : لما ضيقوا على أنفسهم دائرة الاتهام حتى تورطوا في هذا المجال المكشوف ، وأفضصوا بهذه المقالة الشوهاء •

هؤلاء قوم محمد ( ص ) ومعاصروه ، وهم كانوا أحرص الناس على خصوصته ، وأدري الناس بأسفاره ورجلاته ، وأخصاصهم لحرركاته وسكناته ، قد عجزوا كما ترى أن يعتقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم في عصره : فما بال أعداء الاسلام وحساد يأتون بعد عشرات السنين انفضت فيها سوق الحوادث ، وجفت الأقلام ، وطويت الصحف ، ينبشون في قمامات التاريخ التي أنف قومه أن ينبشوها ، فيبتدعوا قصة هذا الراهب أو ذاك ليوهمو بأن محمدا كانت له صلة علمية مع النصراني أو اليهود ، ويتلقفها بعض علماء المسلمين ويسجلوها في كتبهم بسذاجة تدعو إلى العجب ، ودرن بحث أو تمديح أو تأمل ، فينبقلون ما يسمعون مهما كان مصدره ، ولو كان من تأليف النصراني الذي كان التسامح الديني معهم ، وخاصة إبان حكم الدولة الأموية التي أفسحت لهم الصدر أن يتناقشوا مع

المسلمين في دمشق بكل حرية ، بل ويضعوا الكتب والرسائل في الرد على المسلمين ومناقشتهم ، والتي طُوروا بالمفتريات . ومن هؤلاء وعلى رأسهم رجل دين مسيحي فزع من انتشار الاسلام ومن دخول النصارى فيه اقواجا فكتب بحثا لارشاد اخوانه في الدين ولتعليمهم امور دينهم ، ولرد الشبهات التي تكثرت عندهم من انتشار الاسلام في بلاد الشام . وقد حمله عمسله هذا على التعرض للاسلام والاستشهاد بالقران الكريم ، وبالحديث على صحة النصرانية . . . ويعترف هذا الرجل بالقدّيس يوحنا الدمشقي المولود حوالي ٦٧٥ م والمتوفى سنة ٧٤٩ م وهو من أسرة كانت شبيبة معروفة . فكان أبوه في خدمة الخلفاء الأمويين . وله منزلة وحظوة عندهم . وكان هو ناسه من المقربين اليهم والمتصلين بهم ، ومن الذين يستشيرونهم في مهمات الأمور . وقد يسرت له ثروة أبيه سبيل الثقافة بثقافة عالية فتدلع في اللغة السريانية واتقن اليونانية حتى صار كاتباً بارعا فيها ولعله كان من البارعين أيضا في اللغة العربية .

وقد نسب « يوحنا » الاسلام الى الهرطقة Herecy وأدعى أن الرسول أخذ علمه من رجل من أهل الكتاب أو من رجل من الهراطقة الأريوسيين Arius وزعم أيضا أن الرسول كان قد نظر في التوراة والإنجيل ، وأنه تعلم منها وتنبأ ، كما زعم أن الاسلام انما انتشر بعد السيف لا بالحجج والاقناع وغير ذلك من المفتريات التي لا أول لها ولا آخر . ويعد يوحنا الدمشقي هذا الرائد الذي مهد الطريق للمسيحيين المستشرقين المعروفين بتحاميلهم على الاسلام فاكثروا ما يزعمونه وينكرونه عنه هو مما كان قد قاله ودونه قبلهم بما يزيد عن ألف عام (١٩) .

(١٩) تاريخ العرب في الاسلام ( السيرة النبوية ) - د. جواد علي

ص ٢١ .

واخيرا يأتى بعض المؤتورين من المستشرقين فيوسع دائرة افتراءاته ولا يكتفى بأن محمدا قد لققه كاهن مسيحي أو حبر يهودي فقط بل يدعى أن محمدا قد اقتبس من جميع الديانات السائدة على عصره ، ذلك هو « جولدستيهير » المستشرق المجري الأصل اليهودي الدين الذى يقول في كتابه « العقيدة والشريعة في الاسلام » (٢٠) :

ذكر أن محمدا انتخب تعاليم الاسلام من الديانات السائدة على عصره اليهودية والنصرانية والمجوسية والوثنية بعد تهذيب وصقل ، ويخزيه الله ، ويخونه التعبير ، وينكشف تجنيه الأسسود فيقول في الصفحة التالية ٢٥ « بأن محمدا قد أخذ بجميع ما وجده في اتصاله السطحي الناشئ عن رحلاته التجارية مهما كانت طبيعة هذا الذى وجده ، ثم أفاد من هذا دون أى تنظيم » .

فعاداً يمكن أن يقال في رجل تنعكس الأمور والحقائق عنده على هذا النحو ، ويسرى التعصب في كل عرق من عروقه ، فيقول أن محمدا ينتخب وينقل ويقتبس تعاليم دينه من الأديان الأخرى بعد تهذيب وصقل ، ثم لا يلبث أن يدعى أن محمدا أخذ ما وجده مهما كانت طبيعة ما وجده وأفاد منه دون أى تنظيم !!

أى تعبير في أى لغة يمكن إطلاقه على هذا الأسلوب العجيب من التفكير والكلام ، أيكفى القول بأنه الضلال والتضليل ، والالتواء العقلى ، والتحزب غير العلمى الذى لا حثيل له ولا شبيبة .

ثم يوغل الرجل في مفترياته فيقرر « أن الاسلام تضمن فضائل خلقية لاشتبك فيها ، غير أن هذه الفضائل منقولة عن الديانات القديمة » . ونحن نعرف أن الأخلاق الفاضلة ليست حكما على دين من الأديان . بل إن أغلب الفلسفات الانسانية قد تضمنت أسس هذه

(٢٠) ترجمة د. محمد يوسف موسى ، ود. على حسن عبد القادر والاستاذ عبد العزيز عبد الحق ،

الأخلاق ، ووصت باتباعها - فلماذا يتهم الاسلام بأنه نقل عن غيره ولا تنهم الديانة اليهودية والنصرانية بأنها نقلت كيائها الخلقى لبنة لبنة من قدماء الاغريق وقدماء المصريين ؟

ان السواد الذى يصيب قلوب المستشرقين لا يخف قليلا ولا كثيرا كلما تعرضوا لمحمد ولدينه وهم فى ضغائنهم الغالبة لا يرددون الا التهم التى سبق بترديدها الأعراب البله من أهل الجاهلية « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض انه كان غفورا رحيما « ( الفرقان ٥ و ٦ ) »

كل ما هنالك من فرق بين الجاهليين الأوائل ، وأخلافهم من المستشرقين أن أولئك استحيوا من باطلهم وتابوا عنه ، أما هؤلاء فياسم العلم الحر يكذبون ، وياسم البحث المحايد يفترون « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » ( البقرة ١٨ )

وبعد فإن العقل والمنطق لا يعرفان حدا لما يقوم به المستشرقون من تحريف للتاريخ الاسلامى ، وتشويه لمبادئ الاسلام وثقافته ، واعطاء المعلومات الخاطئة عنه وعن أهله ، وهم كذلك يجاهدون بكل الوسائل لينتقصوا من الدور الذى اداه الاسلام فى تاريخ الثقافة الانسانية . ان المستشرقين جميعا فيهم قدر مشترك من هذا الخصام المتجنى ، والتفاسوت - ان وجدوا - انما هو فى الدرجة فقط ، فبعضهم أكثر تعصبا ضد الاسلام ، وعداوة له من البعض الآخر ، ولكن يصدق عليهم جميعا أنهم أعداؤه .

وللجهل المركب مضاعفات وخيمة الاثر شديدة الخطر ! والجهل المركب هو نوع من العلم الخاطئ ، فعدم العلم بشيء ما جهل بسيط ، والعلم بهذا الشيء على خلاف الواقع جهل مركب .

ومن مضاعفات هذا الجهل أن تخضع به الأغرار ، وأن تبذل الجهود لاشاعته ومد رقعته ، وأن تراحم به العلم الصحيح حتى يضيع الخناق على الحقيقة فتزحف وينفسح المجال أمام الباطل فيخلو الجو لتضليله وتضطرب الحياة بوساوسه .

هذا الجهل الموجه ، أو هذا العلم الموجه عنوان صادق للبحوث التى كتبتها عن الاسلام كثير من المستشرقين ، وروجوها بين قومهم ليرضوا ضغائنهم على الاسلام ، ويشيعوا مسخائهم على نبيه أجليل الكريم .

وكتاب هذه البحوث لم يدخلوا ميدان العلم وبين حناياهم ضمائير سليمة ، بل لم تخارهم يوما نية التجرد للحق والاخلاص فى طلبه .

أنهم موظفون فى ادارات الاستعمار فهمهم الغالب أن يلوثوا سمعة الاسلام ، وأن يسوغوا المظالم النازلة بأهله ، وذلك باظهارهم وكأنهم اتباع رجل ميطل ، ودين مظلم .

الاستعمرون يسخرون قواهم المادية لسحق هذه الأمة ، والمستشرقون يقدمون الأسباب العلمية والتاريخية لهذا العدوان ، بأن يظهروا هذا الدين وأصحابه فى شكل منكر ، يلقفوا أصوله وفروعه بحشد لا آخر له من الأكاذيب ، حتى تبدو وكأنها بقايا خرافات يجب محوها محو (٢١) .

هذا وخلاصة القول ان وضع القصة والاهتمام بها ، والترويج لها - بالإضافة الى ما تقدم - القصد منه أولا وأخيرا الادعاء بأن محمدا كان صنعة لرجل ، بحيرا أو نسطورا ، كاهن مسيحي أو حبر يهودي ، انه صنعة رجل أى رجل . وليس مبعوثا من الله ، نعم ان الهدف هو القاء ظلال من الريبة على نبوته ، على أمل ان تميم عقيدة المسلمين بنبوة نبيهم محمد عليه الصلاة والسلام .

ألا ساء ما يفعلون !!!

(٢١) دفاع من العقيدة والتربية ضد مظالم المستشرقين - محمد الغزالي ص ٥١ و ٥٥ و ١٦ .

## اسلام أبى بكر

ان المراجع العربية القديمة التى نتحدث عن أبى بكر . وخاصة قبل اسلامه يشوبها اضطراب يجعل تتبع الحوادث المروية فيها عسيراً فى بعض الأحيان كل العسر . ثم انها كثيراً ما تثبت روايات هى اقرب الى الخرافة منها الى التاريخ . وقد يجد القارئ فى موارنة بعض هذه المراجع ببعض ما يعينه على تمحيص الحوادث لكنها تتواتر روايتها أحياناً لحوادث وأمر يقف الانسان منها موقف الحيرة .

وللمؤرخين الأولين ابلغ العذر عما شاب رواياتهم من اضطراب كان له اثره فى جهود من بعدهم الى عصرنا الحاضر ، فالحوادث الجسماء منذ البعثة المحمدية لم تجد من يفرغ لتدوينها تدويناً منظماً

باستثناء القرآن الكريم ، وبعض الأحاديث النبوية ، وذلك لإنهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن كتابة أى شيء سوى القرآن الكريم - وخاصة في بداية الدعوة - حتى لا يختلط بغيره من الكلام ، ولا يشغل الناس بالدعوة إلى دين الله ، وما استتبع ذلك من جهاد ونضال ، لذلك لم يفرغ أحد للتدوين ، وإنما تناقل الناس من بعد أبناء الحواريات والسير يرويها بعضهم لبعض ، ويتناقلها بعضهم عن بعض . لذلك كان لابد منسوخ هذا المذهب من تقليد الروايات وسوازيتهما واقتناص الحقيقة من خلالها ، وهذا جهد شاق حاوله المؤمنون على طريقتهما . ومع تقديرنا لجهدهم ، وإكبارنا لشأنهم ، فإنهم لم يخطوا سيرة الصديق ما تستحق من اهتمام ، ولم يعطوا الصورة التي توضح لنا ما انطوى عليه هذا الإنسان الرائع من قوة : تفق ، انظر ، وتبهر القلب ، وتثير في النفس غاية الإعجاب . ولعل ذلك يرجع إلى أن عظمة أبي بكر هي العظمة الصامعة التي تأتي أن تتحدث عن نفسها ، لأنها عظمة الروح ، وعظمة الايمان الحق بالله ، وبما أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم .

وأبو بكر هو عبد الله بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة ، يلتقى في نسبته بالنبي ، ويرتفع إلى عدنان . وأمه « أم الخير » سلمى بنت صخر بن عامر(١) .

ولد أبو بكر بعد مولد النبي عليه الصلاة والسلام بستينين وأشهر ، بمكة ، وعاش في طفولته وصباه عيش امتائه ، فلما تخطى الصبا إلى الشباب عمل في التجارة برأزا يبيع الخياش ، فوقق كل التوفيق ، وكثر ماله ، وكان ذا مروءة وأحسان ، وتفضل في يومه ، قال له ابن الدغنة حين راد خارجا من مكة يريد الهجرة ، فردّه وجعله في جواره : انك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتكسب المدوم ، وتحمل الكل ، وتعين على ثواب الدهر ، وتقرى الضيف . وهذه شهادة صدق على لسان مشرك .

وكان واحدا من عشرة من قريش اتصل بهم شرف الجاهلية والاسلام ، فكان إليه أمر الديار والمغارم ، فإذا احتمل دية أو غرم مغرما وأخبر قريشا صدقوه وأعانوه عليه ، ولم يكن الأمر كذلك مع غيره ، ولأنك أن هذه الثقة لم تأت جزافا ، لأنه لابد للضامن المقبول أن يكون ذا دراية دقيقة بتفاوت الاقدار والعصبيات ، مع كياسة في وزن الأمور يميزان العدل الذي يرضى فريقين متخاصمين ، يساند ذلك علم حبير بانساب العرب عامة ، وبقریش خاصة ، علم دقيق بما كان فيها من خير وشر .

أبراه من بني تيم ، وهم قوم اشتهروا بالمهاتمة والأدب ، وذلك لاشتغالهم بالتجارة التي تقوم على المودة ، وحسن المعاملة ولا تتوهم على بسطة النقود ، وسهولة الوفر والغلبة ، فبنو أمية مثلا كانوا يتجرون وكان زعيمهم أبو سفيان يرسل القوافل إلى الشام وإلى اليمن وإلى العراق ولكنها كانت قوافل أشبه بالجملات والبعوث ، يعتمدون فيها على الوفر والوفرة ، وليست كذلك تجارة أبي بكر وقومه من أبناء البطون القرشية التي لها شرف النسب في غير مكاثرة بالعدد والعدة ، ومغالبة بالصولة وهاء القوة ، كمغالبة الأمويين .

وإذا كانت المهاتمة والأدب من الصفات الواضحة في بني تيم ، فإنها أوضح ما تكون في أسرة الصديق ، فقد كانت العلاقات الطيبة السائدة بينه وبين أبيه وأمه وأبنائه مدى الحياة ، حتى تلك الحادثة المعارضة التي ذكرها الرواة عن أحد أبنائه الذي حارب في صفوف المشركين في بدر ، والتي اوشك أن يكون بينه وبين أبيه قتال ، ولكنه انصرف عن أبيه برا به ولم يرض لنفسه أن يقاتله ، ولما أسلم قال لأبيه : لقد أهدمت لى يوم بدر فانصرفت عنك ولم أقتلك(٢) . فإذا تجاوزنا هذه الحادثة وجدنا أبو لا عقوق فيه بعد اعتداء ذلك الابن إلى الاسلام كما اهدى إليه سائر ذويه .

أقبل أبو بكر بعد أن أصبح خليفة إلى مكة معتمرا ، وكان أبوه الشيخ الذي كف بصره جالسا على باب داره ، فقيل له هذا ابنك ، فنهض يلقاه ، ورآه ابنه يهيم بالنهوض فجعل نازلا عن راحلته وهي واقفة قيل أن ينحنيها وجعل يهتف ويقول : يا أبت لا تقم ! ثم لاقاه واحتضنه وأخذ يقبله ، ولم ينتظر - وهو في نحو الستين - أن ينحني راحلته لينزل عنها مخافة على أبيه من حشقة النهوض !

استدعى الخليفة أبو بكر أبياسفيان وأخذ يلومه ويصيح فيه لأمر فعله أبو سسفيان وانكره أبو بكر ، وأبو سسفيان يلين له ويسترضيه .

نساء أبو قحافة : على من يصيح ابني ؟ فقيل له : على أبي سفيان ! فغدا من الخليفة . ابنه . وقال له يلومه : اعلى أبي سفيان تصيح ، وترفع صوتك ؟ لقد عدوت طورك ، وجزت مقدارك .

فاثبتم أبو بكر والصحابة . وقال لأبيه : يا أبت إن الله ربح بالاسلام قوما وأقل به آخرين .

عدوت طورك ، وجزت مقدارك !! لوم وثاني . لمن ؟ للخليفة ! أبي بكر !! الذي بلغ الستين أو تجاوزها ! ولكنه ابنه . وهو والده له حق الطاعة ، وواجب النصيحة والتوجيه ، وفي كل الأحوال .

كان أبو بكر رجلا رضى الخلق ، رقيق الطبع ، رزينا ، لا يغني الهوى ، ولا تملحه الشهوة ، وكان لمرأته وحسن رايه ، ورجاحه عمله لا يسارت قومه في خنير من عمادهم وعاداتهم ، دخرت عايشه أم المؤمنين أنه لم يشرب حمرا في جاهليه ولا اسلام ، هذا على ما كان من حب أهل مكة الخمر وادمانهم لها .

وكان ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قریش يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه ، وتجارته ( أو شجاربه ) وحسن مجالسته .

كان يعيش في حكة في الحى الذى تعيش فيه خديجة بنت خويلد ويعيش فيه التجار النابيون الذين تذهب تجارتهم في رحلتى الشتاء والصيف إلى الشام وإلى اليمن ، ومقامه بهذا الحى هو الذى زاد من روابط الألفة بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم بعد أن تزوج من خديجة وانتقل إلى دارها ، ونقول زاد من الروابط ، فقد كانت العلاقة بينهما قديمة : لأن عبد الله بن جدعان سيد بنى تيم كان ندما وصديقا لعبد المطلب جد النبى ( ص ) ، ولما مات عبد المطلب ظلت الصلة وثيقة بين أبناء عبد المطلب وعبد الله بن جدعان وقومه من بنى تيم ، فكان يختلف إلى دار ابن جدعان أبو طالب والزبير وحمره والعباس ، وكان أبو طالب يدب ابن أخيه محمدا حيا شديدا فكان يصحبه أحيانا حينما يذهب إلى دار ابن جدعان ، كما كان أبو قحافة والد أبي بكر ابن عم عبد الله بن جدعان فقد كان يمضى أوقاتا كثيرة في دار ابن جدعان ، وكان ابنه أبو بكر يصحب أباه ليصغى إلى أحاديث سادات قریش الذين يجتمعون ويسمعون في دار ابن جدعان ، والتقى أبو بكر بمحمد في تلك الدار أو في غيرها من دور شيوخ بنى هاشم أو في الحرم أو في المواسم فتوطدت بينهما صداقة متينة .

ذكر المحب الطبري عن أم سلمة أن أبا بكر كان خذنا للنبى صلى الله عليه وسلم وصفياء (هـ) (٣) . وكان معه حين ذهب مع عمه أبي طالب إلى الشام (٤) :

تزوج أبو بكر صدر شبابه من قتيلة بنت عبد العزى ، فولدت له عبد الله واسماء . واسماء هذه التى لقيت من بعد ذات النطاقين ، وتزوج بعد قتيلة : أم رومان بنت عامر التى كانت أرملة أحد أصدقائه عبد الله ابن الحارث بن سفيان ، وذلك ليحفظ بيت صاحبه

(٣) ارباض النخلة في مناقب العشرة ٥٢/١ .

(٤) مروج الذهب وفاربخ الطبرى وابن خلدون .

وحليفه ويتولى تربية ابنه الطفيل بن عبد الله بن الحارث<sup>(٥)</sup> ، ثم تزوج بالمدينة من حبيبة بنت خارجة ، ثم من اسماء بنت عميس امرأة جعفر بن أبي طالب فولدت له محمدا .

قال النبي صلى الله عليه وسلم « ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا كانت عنده فيه كبرية ونظر وتردد ، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ، ما عكم عنه حين ذكرته له وماتردد فيه »<sup>(٦)</sup> . وأخرج أبو نعيم وابن عساکر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما كلمت في الإسلام أحدا إلا أبي علي . وراجعتني الكلام إلا ابن أبي قحافة . فاني لم اكلمه في شيء إلا قبله واستقام عليه »<sup>(٧)</sup> .

قلم سهل إسلام الصديق هذه السهولة التي لم تؤثر على أحد غيره ؟ فكان أول رجل يؤمن بالله ورسوله !

يقول بعض الرواة وكتاب السيرة : أن سبب مباذرتة إلى التصديق ما علمه من دلائل نبوته ( ص ) وبراهين صدق دعوته قبل دعوته . ولرواها رأيا قبل ذلك : رأى القمر نزل إلى مكة فدخل في كل بيت منه شعبة ثم كان جميعه في حجره ، فقصها على بعض أهل الكتاب ، فغيرها له بأنه يتبع النبي المنتظر الذي طال زمانه ، وأنه يكون من أسعد الناس به . ولعل هذا الذكر من أهل الكتاب هو « بديرا » وأن بديرا لما سمع الرؤيا من أبي بكر قال له : أن صدقت رؤياك فإنه سيبيعت نبي من قومك تكون أنت وزيره في حياته ، وخليفته بعد مماته .

(٥) جريدة النساب الغرب لابن حزم - واسد الغابة ٢٢١/٧ .

(٦) صحيح البخاري باب ٨ من الناقب ، والسيرة لابن هشام ٢٥٩/١ .

وعيون الآخر لابن سيد الناس ٩٥/١ .

(٧) تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي تحقيق محمد مكي الدين

عبد الحميد ص ٢ .

وتقول « السيرة الحلبية » أن أبو نعيم أخرج عن بعض الصحابة أن أبا بكر آمن بالنبي ( ص ) قول النبوة « أي علم أنه النبي المنتظر لما مر على بديرا الراهب ، ولما سمعه من شيخ عالم من الأزد قد قرأ الكتب نزل به أبو بكر في اليمن فقال له : أحسبك حرميا ، فقال أبو بكر نعم ، فقال له : أحسبك قرشيا ، قال نعم ، فقال له أحسبك تيميا قال نعم : قال له بقيت لي فيك واحدة ، قال وما هي ؟ قال له : تكشف لي عن بطنك فقال له : لا أفعل أو تخبرني لم ذلك ، فقال : أجد في العلم الصحيح الصادق أن نبيا يبعث في الحرم يعاونه على أمره فتى وكهل ، فأما الفتى فخواض غمرات ، ودفاع معضلات ، وأما الكهل فأبيض نحيف ، على بطنه شامة ، وعلى فخذه اليسرى علامة ، وما عليك أن تروني ماسالك ، فقد تكلمت فيك الصفة ، فقال أبو بكر : فكشفت له عن بطني فرأى شامة بيضاء أو سوداء فوق سرتي ، أي ورأى العلامة على الفخذ اليسر ، فقال أنت هو ورب الكعبة ، قال أبو بكر : فلما قضيت أربي من اليمن أتيتك لأودعك ، فقال : أحافظ عنك أبياتا من الشعر قلتها في ذلك النبي ؟ قلت نعم ، فذكر له أبياتا ، قال أبو بكر فقدمت مكة وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فجاءني حسنايد قريش كعكية بن أبي معيط ، وشيرة بن ربيعة ، وأبي جهل وأبي البحتري ، فقالوا : يا أبا بكر يقيم أمر طالب يزعم أنه نبي وله لا انتظارك ما انتظرنا به ، فإذا قد جئت فأتت الغايق الكفافية ، أي لأن أبا بكر كان صدوقا له ، قال أبو بكر فصرقتهم على أحسن شيء ، ثم جثته عليه الصلاة والسلام فقرعت عليه الباب ، فخرج إلي وقال لي : يا أبا بكر اني رسول الله إليك وإلى الناس كلهم ، فأمن بالله . فقلت وما دليلك على ذلك ؟ قال : الشديق الذي أفادك الآيات ، فقلت ومن أخذك يا حبيبي ؟ قال : الملك العظيم الذي يأتي الانبياء قبلهم . قلت : عد بك فأتنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، قال أبو بكر : فأنصرت وما بين لاتبيا أشد سرورا من رسول الله (ص) بإسلامي ، وفي لفظ أشد سرورا مني بإسلامي ، ولا مانع من صدور الأمرين منه رضى الله عنه ، ويحتاج للجمع بين هذا وبين ما تقدم من أنه كان مع حكيم بن حزام يوما إذ جاءت مولاة لحكيم فقالت ان عمك خديجة

ولعلنا نختصر الطريق الى جواب هذا السؤال - كما يقول العقاد - اذا نحن سألنا عن الموانع دون الاسلام ، قبل ان نسال عن الموجبات ، لأننا اذا بحثنا عن العقبات فلم نجدها ، أو بحثنا عنها فوجدناها قليلة العدد هيئة التدايل بدت لنا سهولة الطريق من غير جهد كبير في البحث عن الموجبات ، وعرفنا انه « لا مانع » فعرفنا انه لا صعوبة ولا محل للتريد والمقاومة ، فما الذي كان يمنع أبابكر أن يجيب دعوة الاسلام ؟ بل ما الذي يمنع انسانا من الناس - كما كنا من كان - أن يجيب الدعوة الى عقيدة جديدة ؟

يمنع الانسان أن يصغى الى دعوة العقائد الجديدة موانع شتى من آفات العقل والخلق والبيئة ، تجتمع وتتفرق ، ويبتلى الرجل الواحد بها جميعا ، وقد يبتلى بمانع واحد منها فيحول بينه وبين الاصفاء والاجابة .

يمنعه من اجابة الدعوة : غطرسة ، أو سيادة مهددة ، أو مصلحة في بقاء القديم ومحاربة الجديد ، أو ذهن مغلق لا يتفتح للفهم والتفكير ، أو مغامرة للشبهوات تحبب اليه أن يستقيم الى العرف الذي يبيحها ويسمح بها ويعزف عن الهداية التي تحظرها وتقف في سبيلها ، أو تعصب غشوب للعقيدة التي درج عليها ودان بها ، أو شعور بقوة سلطان تلك العقيدة في ابناء قومه سواء منهم المتصبون لها والتأبلون لها على المجارة والمدارة ، أو جبن يمنعه أن يخرج على المألوف ، ويتصدى لسطوط الساخطين وأن تبين طريق الاستقامة والساد ، أو ايفال في الشبهة بخفة يصد الانسان عن كل تغيير ، أو حداثة سن تجعله تابعاً لغيره في الرأي والسلوك غير مستقل التفكير والتصرف ، أو ذلة مطبوعة تلحقه بمن اذله وبسط سلطانته عليه .

فالمطرسة خله تآبى على صاحبها أن يستمع الى قول ، أو يصيح الى دعوة أو يتنزل الى متابعة انسان ، ترفعاً عن الاصغاء قبل أن يهديه الاصغاء الى موافقة أو انكار ، وتعظم على نفسه أن

تزعج في هذا اليوم أن زوجها نبي مرسل مثل موسى عليه السلام . فانسأل أبو بكر حتى أتى النبي ( ص ) فسأله عن خبره فقص عليه قصته المتضمنة لمجيء الوحي له ، واخبره بأن الله ارسله ، فقال صدقت بأبي وأمي ، أنت وأهل الصديق أنت ، أنا أشهد أن لا اله الا الله وأنت رسول الله . فسماه يومئذ الصديق بوحى من الله ، ولما سمعت خديجة رضى الله عنها مقالة أبي بكر رضى الله عنه خرجت وعليها خمار أحمر فقالت : الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا كنا وقد جاء في تفسير قوله تعالى : والذي جاء بالصديق وصدق به أن الذي جاء بالصديق رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي صدق به أبو بكر .

هذا كلام نجده في السيرة الحلبية ، والسيرة النبوية والآثار المحمدية لأحمد زيني المشهور بشحلان ، والرياض النضرة في مناقب العشرة للعبد النابري . كما يذكر الزمخشري في « خصائص العشرة » ص ٤٢ : أن مدام أبي بكر رضى الله عنه كان يشتمه الوحي ، كما روى : أنه رأى رؤيا فقصها على الراهب وهو بحيرا بالشام ، فقال ان صدقت رؤياك فانه سيبعث نبي من قومك وتكون وزيره وخليفته بعد وفاته ، فأسرها الى أن بعث رسول الله ( ص ) فجاءه فقال له : ما الدليل على ما تدعى ؟ فقال : الرؤيا التي رأيتما في الشام . فعانقه وقبل يده وقال : أشهد ألا اله الا الله وأشهد أنك رسول الله .

وتكرر الرواية بشكل أو بآخر في كتب أخرى مع اختلاف في اللفظ أو في المكان فمرة في الشام ومرة في اليمن ، ومعبر الرؤيا بحيرا مرة وورقة بن نوفل مرة ، ورجل قرأ الكتب مرة ، إلا أنها - للأسف - تنفق على أن أبا بكر قال للرسول : وما ذلك ؟ وهذا السؤال يتناقض ويتعارض مع الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي ذكرناه ، ويصبح السؤال الذي طرحناه باقياً دون جواب « لم سهل اسلام الصديق هذه السهولة التي لم تؤثر عن أحد غيره ، فكان أول رجل يؤمن بالله ورسوله » .

يغلبه منافس على الشرف والعزة فقد كان الوليد بن المغيرة مثلاً يزعم أنه هو أحق الناس بالنبوة والقرآن ويقول : أنزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدنا ، ويترك ابن مسعود ابن عمرو الثقفي سيد ثقيف ونحن عظيمنا القريتين !! وقد أنزل الله فيهما « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » ( الزخرف ٢٦ ) .

والسيادة المهددة توحى الى صاحبها كراهية التحديد ، لأنه يحس بالبداهة أن صاحب الجديد أولى منه بالسيادة أن شاع ما جده بين الناس ، فتبتل سيادته ببطلان القديم الذي قامت عليه وقايام الجديد الذي نسخته وعفاه . فقد كان أبي جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي ابن أخى الوليد يقول : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تمازجنا على الركب كفرسى رهان ، قالوا منا نبي يأتيه الوحى من السماء ، قمى نذك مثا هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقها (٨) .

والمصلحة فى حالة من الحالات المستقرة تجعل الرجل محبا لتلك الحالة حبه للمنفعة ، كارهها لتبديلها كراهته للخسارة ، ميلا الى محاربة الدعوة الجديدة قبل أن يبدع فيها ويتعرف وجسره الخير الذى قد يصيبه منها .

والذهن الخلق جهل ما يقال ، ويعادى ما يجهل ، وينفر من كل ما يشق عليه ، وأول ما يشق عليه أن يفهم شيئا على وجهه السوى ، أو يتفهم للفهم بأية حال .

ومغامسة الشهوات تبغض الى المرء سلوانها والاقلام عنها ، وتقرن عنده دعوات الإصلاح والاستقامة بشؤم التنفيس والتكدير ، فيبتزم بها وينزعج لها ، كما ينزعج النائم المستغرق أيقظته من نومة لذيذة قد استراح لها .

(٨) عبون الاخبار لابن فنييه ٣٦/١ ، والاعاني ٦٤/١٨ وغيرها .

والتعصب الغضوب لما اعتقده المرء يثيره أن تمس عقيدته كما يثور لحماية الحوزة ، أو الذود على الآباء والأجداد ، لأنه يحسب عقيدته ملكا له ولآبائه يرد عنها من يهجم عليها ، كما يرد صاحب البيت من يهجم عليه .

والعقيدة اذا كانت قوية السلطان غلبت عزتها على عزة العقل والفؤاد قاصر عليها من كان خليقا أن يعافها ويعرف عيبها لو دعى الى تركها وهى تتداعى وتتزعزع وتؤذن بالزوال .

والجين يجعل صاحبه يخاف أن يجهز بالحق ، ويتعد به عن الطريق الذى يقوده الى الاصغاء فلايمان .

والشيخوخة عدو لكل طارق جديد .

والحادثة بين طيش يدعو الى التمرد وطاعة تدعو الى مقاباة الاولياء .

والذلة حجاب بين الدليل ونفسه يحجبه وراء من اذله ، فلا تصل اليه الدعوة الا من تلك الطريق .

هذه هى موانع الاصغاء الى كل دعاء جديد ، أو هذه اعم الموانع التى تحول بين معظم الاسماع والاصغاء الى ذلك الدعاء .

ومن الحقائق المؤكدة أن هذه الموانع كانت أقل ما تكون فى أبى بكر الصديق بل انه كان براء منها جميعا ، أو كان كائرا الناس منها .

فلم يكن متغطرسا ، بل كان مشهورا بالدعة والسماحة ، سريعا الى التأثر وإلى مشاركة اليأس فى يؤسه ، والضعف فى ضعفه ، مألفا لقومه كما قال واصفوه ، محبا ، سهلا ، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر : لعلمه وتجاربه ( أو تجارته ) وحسن مجالسته ، ولعلنا لا نجد فى طول التاريخ وعرضه

بوصمة يغييه بها من أسرعوا الى معاتبته يوم هجر عقيدة الجاهلية  
ودخل في دين الاسلام .

ولم تكن عبادة الأوثان عقيدة مكينة لسلطان في عهد الدعوة  
المحمدية ، بل كان العربي ضعيف الايمان بها ، ولذلك لم يخفق  
حولها الشعائر الدينية المغروسة والموجوده عند غير العرب من  
الاسم ، وكانت الحياة الدينية في بلاد العرب تنصف بانفوضى لتعدد  
الاديان والمذاهب ، وكانت الوثنية قد غدت معناها الاول وقوتها  
السالفة ، ودب فيها الفساد ، وتغير جوهرها ، فاصبحت مجموعة  
من الضرافات والافهام ، ولكن العسرب وان قطنوا لحقيقة هذه  
الأوثان ، فقد احتفظوا بها كعادة وتقليد متوارث عن الاسلاف ،  
ولفائدة التجارية التي كانت تدربها اوثان على اهالي مكة ، وقد  
وصف المؤرخ « ديكنسون » في كتابه « التاريخ العربي القديم »  
( ص ١٧٧ ) الأصنام بأنها الالهة عصر الاساطير والتدهور الذي  
سبق الاسلام (١) ، وغدت اسميتها ، ولذلك فقد اهملها كثير من الناس ،  
ويحدث اخرون عن غيرها ، فمنهم من عبد النجوم والكواكب كالشمس  
والقمر والشعري وغطارد وغيرها ، ومنهم من عبد النيات والطير  
والحيوان (٢) . - وفصل بعضهم عليها المسيحية او اليهودية ، بل  
ان البعض قد عبد لها واحدا وهم الاحناف (٣) . وعلى هذا لم يكن  
ابو بكر متعصبا للجاهلية وعبادتها ، بل لعله كان مزديا لها  
مستخفا بالاصنام وباحلام عابديها ، واذا صح ما روى عنه فهو لم  
يسجد لصنم قط ، وقال : لما ناهزت الحلم اخذ ابو حنيفة يدي  
وانطلق بي الى مخدع فيه اصنام ، فقال : هذه الهةك انتم العوالي  
وخلائي وذهب ، غدنوت من الصنم وقلت : اني جائع شاعمني ! فلم  
يجبني . فقلت اني عار فاكسني ! فلم يجبني . فالتفت عليه صخرة  
فخر لوجهه (٤) .

من يبلغ به التواضع الى الحد الذي بلغه ابو بكر ، فقد كان يحلب  
للحي اغنامهم ، فلما بويغ بالخلافة قالت جارية من الحي : اليوم  
لا تحلب لنا مئاثق دارنا ، فسمعها ابو بكر فقال : بلى ، لعمري  
لاحلبنها لكم واني لأرجو ان لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت  
عليه . فكان يحلب لهم لأكثر من ستة أشهر من خلافته .

ولم يكن مهتدا في سيادة حضورية على اغناق الناس ، فكان  
من نوى الشرف في قریش ، ولكنه لم يكن من قبائلها السبائية  
السيطرة التي تستطيل بالبغي والطغيان ، كان من تيم وهي بيت  
قرشي معدود ، ولكنه لم يمنع ابا سفيان ان يقول لعلي بن ابي طالب  
يستثيره حين بويغ ابو بكر بالخلافة « ما بال هذا الأمر في اذل قبيلة  
من قریش واقلها » ! وقال أحد الشعراء :

ويقضی الامر حين تغيب تيم ولا يستأثرون وهم شهبون

وقد يكون ابو سفيان مبالغاً او موقنوا وكذلك هذا الشاعر .  
ولكنها ليست من أعز القبائل وأكثرها ذكاء ، وأتواها نقوداً على  
كل حال ، ومع ذلك فكانوا يصفونهم بأنهم « مصاييح الظلام » .

ولم تكن لأبي بكر مصلحة في دواء الجاهلية ، لان عمله فيها  
كان ضمنان المنار والديار ، وربما كان هذا العمل اقب الى  
الفسادة منه الى المنفعة والغنىمة ، فلا أسف عليه ، اما التحارة  
فلا خوف عليها من الدعوة الجديدة ، وصاحبها الداعي اليها تاجر  
بيعهما ويزاولها .

ولم يكن مغلق للذهن ، ولا وصفه أحد بهذه الصفة من محبيه  
او شائتيه ، بل كان معروفا بالذكاء ، بلعب المعنى البعيد فيدركه ،  
ويسبق الحاضرين الى فهمه ، كما حدث غير مرة والثني ( ص )  
يتحدث او يعظ الناس .

ولم يكن محبا للشبهات ، بل كان يعرف عما كان يمارسه الناس  
حتى نوى الاقدار والأخطار منهم ، فلم يشرب الخمر ، ولم يشتهر

- (٢٧) التاريخ الموحد للأمة العربية - د. علي حسني الخربوطلي ص ٣٥ .  
(٢٨) ادب التاريخ عند العرب - د. عفت الشراوى ١٦٢/١ .  
(٢٩) حضارة العرب - جوستاف لوبون - ترجمة عادل زمير ص ١٠٠ .  
(٣٠) أبناء نجباء الأبناء - ابن ظفر ص ٤٢ .

ان رجلا كاذباً يكر عرك الدنيا لا يمكن أن يغيب عنه نتائج الخروج على دين الجماعة إلى دين جديد لا عهد للناس به ، يسفه أحلامهم ، ويسب المهتهم ، ويهدد كثيرون من مصالحيهم ، ويزلزل الأرض تحت أقدامهم ، انه الهول الذي ليس بعده هول ! هو تقطيع العلاقات الوثيقة بينه وبين الناس التي كانت تسير كآحسن ما تكون العلاقات ، وما يعقب ذلك من كساد التجارة التي هي مصدر حياته وعليها معاشه ، وبديل الأمن وحشيه ، والمودة عدوة ، وسقوط المكانة ، وضياح الهيبة ، والتعرض للمهانة ، والإيذاء في النفس والمال ، وليست له منعة في قبيلة لها سطوة وسلطان . هي حياته كلها إذن من جميع وجوها تتعرض للانتلاب رأساً على عقب بإقدامه على الإسلام . ثم هو أول داخل في الدين ، فهو لا ينتظر أن يجد فيه رفاقاً يبذلون له الحماية ، ويكتفون له المنعة ، ويعوضونه عما سيفقدونه ، انما هو يترك الدعة إلى الاضطراب ، والأمن إلى الهول ، والكرامة إلى الويل ، ورواج التجارة إلى انكساد والمقاطعة .

ان الأمر لم يقتصر على قلة الموانع في طريق الصديق إلى الإسلام ، بل انه علاوة على ذلك قد كانت له خلائق عاملة تدفعه وتقربه إلى العقائد القويمة ، وتجعله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، ولا حاجة به إلى أكثر من ذلك ليفرق بين سنن الجاهلية وسنن الإسلام ، ويميز بين ما هو حقيق بالترك والاعراض ، وما هو حقيق بالحرص عليه والإسراع إليه .

كان الرجل صادق الطبع ، مستقيم الضمير ، وعرف باسم الصديق إذ عرف الناس فيه الصدق من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالإسلام ، لأنه كان يضمن المغارم والديات فيصدقونه ، ويعتمدون على وعده ، ويركنون إلى وفائه ، وقد يكون هذا الوصف لتصديقه النبى في كل ما أخبره به ، وسواء كان هذا أو ذاك فالذى لا خلاف فيه انه هم كانوا يصدقونه لأنه كان أهلاً للتصديق .

ولم يكن الصديق بالجبان ، ولا بالشجاع الذى نصيبه من الشجاعة قليل بل كانت شجاعته تفوق شجاعة الأبطال المدعويين في الجاهلية والإسلام ، وتبدر شجاعته من الحاجة على النبى أن يظهر بالمسلمين في مسيرة في نواحي المسجد وهم دون الأربعين عدداً ، ومن قيامه خطيباً يجهر بالدعوة إلى الله ورسوله والمشركون متربصون شائرون ، فيثبون عليه يضربونه ويؤذونه ويرسسونهم أهانة مع الضرب والإيذاء ، وتصدى عتبه ابن ربيعة لأبى بكر فجعل يضربه بعتلين مخصوفين على وجهه حتى ورم ، وخفى على الناظر إليه مكان انفه ، وتسامح أهله من بنى تيم فاقبلوا يتعادون ويحلقون المشركين عنه ، ثم حملوه إلى بيته وما يشكون في موته ، وصاح منهم صائحون في المسجد : والله لئن مات أبى بكر لنقتلن عتبه . ثم أحاطوا به يكلمونه حتى أفاق وأجاب : فكان أول ما فاه به وهو في تلك الحال : ما فعل رسول الله ؟ فلاموه وعنفوه وسألوا إمامه أن تلعنه أو تسقيه شيئاً يرد إليه نفسه ، فأبى أن ياكل أو يشرب حتى يطمئن على رسول الله ، لقد كان من أشجع الشجعان : ثبت مع النبى في كل موقف وكل موقعة حين ولى من ولى وأبطأ من أبطأ ، وغامر بحياته في حروب الردة وله مندوحة عن خوضها ، ولم يذكر في أخباره خبر نكول أو خوف على حياة أو مال .

ولم يكن شيخاً غانياً متابعاً لكل قديم ، ولا حدثاً صغيراً تطيش به رعونة الشباب حين دعاه محمد إلى دينه وهداه ، بل كان في سن يكتمل فيها الطبع وتتم السجية ، كان رجلاً ناضجاً في بسطة الرجلية يفقه الأمور ، ويزن القول بفهم نافذ ، وحكم صادق ، وعقل راجح .

تلك جملة الموانع التى تحول بين الإنسان وقبول الدعوات الجديدة إلى الإصلاح ، وكلها هنا غائبة عن أبى بكر ، فهل معنى ذلك أن الصديق لم تكن بينه وبين الإسلام عقبات تصده عن ورود ، وأن طريقه إليه كانت ممهدة مفتوحة يخطو فيها خطوته الأولى فلا يلبث أن يتبعها بخطوات ؟!

ومن كان على هذا الصديق في الخليقة فلا حجاب بينه وبين دعوة اصلاح ، وليس من شأنه أن يصم اذنيه عن قول صادق ، ودعاء مستقيم ، ولو كلفه ذلك غاية العناء .

ثم انه كان مطبوعا على الحماسة لما يعتقد فيه الحق والخير والصلاح ، يبدو ذلك في اسرعه الى التبشير بالاسلام ساعة أن اهتدى اليه ، فدخل في الدين على يديه نخبة من أسبق الصالحين وأخلصهم للنبي ( ص ) وأعظمهم أثرا بعد ذلك في قيام الدولة الإسلامية : كعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وأنزير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وجعل لا يهدأ ولا يستريح حتى أدخل في دينه والديه وذويه .

وتبدو هذه الحماسة الشديدة من اتخاذه مسجدا لصلاته وتلاوته على قارعة الطريق ، يسمعه حين يقرأ كل عابر ، ويستاء المشركون منه ، ويتوعدونه فلا يفزع من وعيد ، ولما جاءه الرجل الذي أجاره من المشركين على أن يكتم اسلامه وعبادته وخبره بين الكتمان أو رد الزمة اليه لم يتردد في رد الزمة وقال له : فاني أريد جوارك ، وارضى بجوار الله عز وجل .

ورجل مطبوع على سماع الحق وتصديقه والدعوة اليه ، والحماسة له ، غير عجيب أن يسرع الى العقيدة الجديدة هذا الاسراع ! دون انتظار ودون تردد ! برغم أن العقيدة يومئذ كانت مضموناتها مجملة بعيدة عن التفصيل ، ويحتاج من يعتنقها في ذلك الطور حتما الى ثقة بالداعي اليها - وهو محمد ( ص ) - تدعوه الى قبول هذه العقيدة الجديدة .

وخارج نطاق أهل بيت محمد الأقربيين جدا لم يجبه من قرابته أحد على ملهم به من ثقة كبيرة ، فليس يكتفى اذن القول بأن محمد ابن عبد الله كان « الأمين » الذي تعرف قريش صدقه وامانته وكريم اخلاقه ، وكان ذوو قرابته من بني عبد المطلب - فضلا عن بني هاشم - اعرف به من قريش ، ولم يكن هذا كافيا عندهم كي يستجيب أي أحد منهم للنبي كما فعل أبو بكر !

فلا بد اذن من سبب فوق هذا السبب المألوف في تحليل الثقة الدافعة لأبي بكر الى التصديق ، القاضية على الموانع ! .

ولا بد لكل شيء يحدث في الكون من سبب كاف ، أما الأسباب التي دون الكافية فلا تحدث النتيجة التي نبحث لها عن تحليل وتفسير .

فما هو اذن هذا السبب الكافي ليكون أبو بكر أول من أسلم مفتتحا بل مقتحما (١٢) طريق الأحوال ، وليكون اسلامه اندفاعا لا تعرف التردد والمراوحة بين عوامل الاحجام والاقبال ؟ .

دواعي الثقة الشائعة في قريش بمحمد بن عبد الله غير كافية لهذا التفسير وألا لكانت كافية لدخول أكثرية قريش فيما دخل فيه أبو بكر وعلى نحو ما دخل أبو بكر !

لا بد اذن من سبب فوق الثقة وأقوى منها .

فأي شيء عساذ يكون هذا السبب ؟ وبأي أسم من الأسماء المعهودة في شعامل الناس تدعوه ؟

يجيب على هذا التساؤل العقاد فيقول عنه انه الاعجاب بالبطولة ! فالرجل المعجب بالبطولة يعرف بطله ، ثم يتق به ، ثم يرتقى بالثقة الى ما فوقها ، وما هو أمكن منها . لأن انشئة اقتناع بالشخص تأسيسا على سوابقه في التعامل ، واستنادا الى وثيقة تدعو اليها على حسب ما فيها من بيناتها وبراهينها ، أما الاعجاب فهو الرغبة في الثقة ، وكرهية التحول عنها ، هو البحث عن الثقة والتذاذها اذا وقف الواقفون عند الانتظار أو مجرد التامين الموافقة بعد الانتظار .

(١٢) انظر « أبو بكر حواري محمد » للدكتور نظمي لوقا .

وأبو بكر لم يعجب ببطل تروعه منه سطوة العتاة المتجبرين ، ولم يعجب ببطل تروعه منه مناهل الزخرف والخيلاء ، ولم يعجب ببطل تروعه منه جليلة الصيت الفارغ ، والمواكب الجوفاء ، ولم يعجب ببطل يزهى بالوفر والثروة أو بالعصبة أولى القوة والباس .

لا . لم يكن هذا هو الذى راعه من بطولة محمد صلى الله عليه وسلم لأن محمداً لم يكن ذا سطوة ، بل كان عرضه للأذى من المسلمين عليه ، ولم يكن من أصحاب الزخرف والخيلاء ، بل كان أعداؤه هم أصحاب الزخرف والخيلاء ، ولم يكن وراءه أحد يتبعه بل كان وحيداً يطرده الأكثرون .

انما البطولة التى أعجب بها أبو بكر هى البطولة التى ليس أشرف منها بطولة تعرفها النفوس الانسانية ، هى بطولة الحق ، وبطولة الخير ، وبطولة الاستقامة ، وهى بعد هذا ، وفوق هذا ، بطولة الفداء ، يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما سيلقاه من عنت الأقياء والجهلاء .

تلك هى بطولة محمد . . .

وقد تواترت أنباء مختلفة لصداقة أبى بكر للنبي ( ص ) قبل الدعوة المحمدية ، منها خبر أورده الحب الطبرى عن أم سلمة ، وكذلك المسعودى والطبرى « بأنه كان خدينا للنبي وصفياً له فى الجاهلية ، وموضع سره » ، ويختلف بعض المؤرخين وخاصة من الأوربيين فيستبعدونها ، إلا أن الدليل الذى يغنى عن وثائق التاريخ أن أبابكر كان باتفاق الأقوال أول المستجيبين لدعوة محمد من غير أهله ، وإن يكن ذلك بغير معرفة سابقة بين الرجلين حببت الى النبي ( ص ) أن يبدأ به ، ويترقب منه الأصغاء اليه ، وأيسر ما يستلزمه ذلك السبق الى الاسلام أن يكون أبو بكر معروفاً بصفاته لمحمد وأن يكون محمد معروفاً بصفاته لأبى بكر ، فلما سمع دعوته سارع الى تصديقه وهو معجب به وباستقامته طبعه ، ونقاء سيرته ، وبلاغه حديثه ، وأعانه على التفرقة بينه وبين خصومه والتمييز بينه وبين

منكبريه ، أنه كان نسابه قرشي لا يفوته مغنم من مغازمهم قديمها وحديثها فى الأنساب والأخلاق ، ومحمد عنده مطهر من كل ذلك برا .

ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يأت الناس بحديث عن شيء من قبل ما أنشأ التعامل فيه معه أو مع سواء ، فما هو بحديث تجارة ، ولا بحديث رواية أو شيء كسائر ما يرويه الرواة ويشاهدونه المشاهدون ، ولكن الذى يرويه استعجاش عاطفة أبى بكر ، واستولى على مجموع نفسه حين نبذ كل شيء وبأيعه على الإيمان بدعوته ومناصرة .

فالمسر إذن - أو بعض هذا السر على الأقل - بالإضافة الى الثقة والإعجاب بالبطولة ، فيما كان يجول بنفس أبى بكر قبل أن يلقيه محمد بما لقيه به : فقد كان أبو بكر على يقين بلاشك من ضلال الرقنية ، ولكنه كان هو نفسه تأثراً حائراً لا يدرك أين يكون الحق والهدى والنور ، وكان مشوقاً أشد الشوق الى الهدى ، ظمأناً أشد الظمأ الى الحق : ههنا أكثر ما يكون التهيؤ الى من يأخذ بيده الى النور !

وليس هذا قصص ، ولكن الأمر يتعلق أيضاً بالمشور الذى أهدى بدهاد الى النور ، ولا يمكن أن يكون تصديقاً بمجهول ، أو معروف ، على المستوى المألوف من التعارف بين أهل قرية واحدة . . . فقد كان أولى بذلك : لو أنه كان كافياً - قومه من بني عبد المطلب .

ولكن ماذا يدريه أن هذا الذى يحملته اليه ذلك الصبي المحبوب المعروف اليه هو النور المنشود ، وما سمع منه الا شيئاً قليلاً ، وما عرض عليه الا قبساً !

هو إذن شيء أكثر من ثقة المعرفة أو ثقة القرابة ، أو الإعجاب بالبطولة ، انه شيء فوق هذا كله ، انه ثقة القاليف الرقيق الذى يسقط جميع الحواجز ولا يحتاج الى أسباب ومعاذير . . . انه نوع سام من الحب !!

حب، يندر أن يقع بين الأصفياء من بنى البشر ، ولكنه حين يقع يشع نورا يميزه من سائر العلاقات المألوفة .

كان أبو بكر يملؤه هذا الحب الذى لا يستلعيه ولا يرقى اليه الا أمثال أبى بكر قبل الدعوة بسنين لا شك ، لأن هذا الحب هو الذى يمكن له وحده أن يفسر « انفتاح » قلب أبى بكر بهذه السهولة وارتعاده فى أحضان العقيدة الجديدة .

وهكذا يبين لنا فى اسلام أبى بكر أن الدعوة المحمدية دعت إليها بأسبابها المعقولة فاستجاب إليها بأسبابها المعقولة التى توائمها صدق المواءمة ، ولا تحوج أحدا من المعتلين والمفسرين إلى الذوارق المكذوبة ، والعلل الواهية ، والتفسيرات السطحية ، والرؤى المستطورية ، وتدعوات الرهبان !!

كان الصديق رضى الله عنه اذن أول رجل من شرفاء العرب دان بالاسلام ، سريعا الى دعوته لتلك الأسباب التى تليق به ، وتليق بالدعوة المحمدية ، وكذب له فى اللحظة الأولى أن يكون ثانى اثنين حين يكون النبى هو أول الاثنين : .. فكان ثانى اثنين فى الاسلام . وثانى اثنين فى غار الهجرة ، وثانى اثنين فى العريش التى أوى إليها النبى يوم بدر الذى لا يوم مثله ، وثانى اثنين فى كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ، وأقرب صاحب إلى النبى فى العسر واليسر ، وفى السر والجهر ، وفى شئون نفسه وشئون المسلمين .

ومن اللحظة الأولى وهب للاسلام كل ما يملك انسان أن يهب من نفسه وماله وآله وبنيه ، فأخذ أمه الى النبى لتسلم على يديه وهو بين الحياة والموت بعد أن اعتدى عليه المشركون إذ جهر بالدعوة عند المسجد ، وجاءه بأبيه بعد فتح مكة ليسلم على يديه وقد كبر سنه ووهن عظمه ، وحمل ماله كله وهو يهاجر فى ضميمة النبى يؤثر به اثنين على الآل والبنتين .

قال بعض الرواة أن النبى وجه اليه الدعوة خاصة ، وقال آخرون أنه عليه الصلاة والسلام قصد الناس بالدعوة العامة فعلم أبو بكر فجاءه يسأله :

ياأبا القاسم : ما الذى بلغنى عنك ؟

فسأله النبى : ومابلغك عنى يا أبا بكر ؟

قال : بلغنى أنك تدعو الى توحيد الله ، وزعمت أنك رسول الله .

قال : نعم يا أبا بكر ان ربى جعلنى بشيرا ونذيرا ، وجعلنى دعوة إبراهيم ، وأرسلنى الى الناس جميعا .

فما أبطل أبو بكر أن قال : والله ما جربت عليك كذبا ، وإنك لخلق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمك ، وحسن فعالك ، مد يدك لى عبايعك .

والصدق ، والأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الفعال : صفات يفهما أبو بكر ، لأنه يحبها ، ويتصف بها ، ويحب أهلها ، فهو صادق أمين رحيم حسن الفعال ، وتلك اقرب الآيات الى قلبه ، وهى أولى الآيات بالصدق عند الصادقين المصدقين ، فمن الجائز أن تخدعنا الخوارق وليس الجائز أن تخدعنا من يصدق ويبر . ويؤدى الأمانة ، ويستقيم على سواء الطريق فى فعاله وخصله .

وأصبح الاسلام منذ تلك اللحظة دينا عند أبى بكر يقابل الدنيا بما وسعت من خيرات وطيبات ، أصبح عنده غنيمه يرض بها المراء

## الفهرس

|     |           |                                           |
|-----|-----------|-------------------------------------------|
| ٣   | • • • • • | شكر واجب                                  |
| ٥   | • • • • • | تمهيد                                     |
| ١٢  | • • • • • | كيف ومتى كتبت السيرة                      |
| ٢٣  | • • • • • | رضاعة الرسول صلى الله عليه وسلم           |
| ٢٩  | • • • • • | رواية شق الصدر                            |
| ٤٩  | • • • • • | شد الأزرار وستر العورة                    |
| ٥١  | • • • • • | سنن السيمدتين خديجة وعائشة رضى الله عنهما |
| ٦٢  | • • • • • | سرية الدعوة                               |
| ٦٩  | • • • • • | الهجرة                                    |
| ٧٧  | • • • • • | قصة بحيرة الكاهن                          |
| ١١٢ | • • • • • | اسلام أبى بكر                             |

من حياة أو آل أو ذرية أو مال ، ولو قاسه بمقياس دنيا لقد كان الاسلام بلية عليه لا يطلبها عاقل ، وتكنه قاسه بمقياس دين فعلم أنه أربع الرايحين وأرشد الراشدين ، طلبه دنيا وكفى ، فصبى فيه على ما يجزع منه طالب الدنيا ، ويرغض مجرد أن يقترب منه •

يوجز الأمر كله صاحب كتاب « أشهر مشاهير الاسلام » فيقول : تجسم أبى بكر رضى الله عنه من الفضيلة ، وخلص جوهره من الدغل ، وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد ، وطهارتها من عمى البصيرة عن ادراك السواب والمعاراة فى الحق ، فقامت لديه الحجة على الشرك ، وظهرت له حجة الرشد لاول وهلة من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم الذى تفرس فيه الاستعداد الكامل للايمان ، فبادره بالدعوة فلم يتردد وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد • ولهذا فقد قال عليه الصلاة والسلام « مادعوت أحدا الى الاسلام الا كانت عنده فيه كوبة ونظر وتردد ، الا ما كان من أبى بكر بن أبى قحافة ، ما عكم حين ذكرته له وما تردد فيه » •

رضى الله عنك أبى بكر ، وجزاك أوفر الجزاء على ما أديته الى الاسلام من خير لا يعادله خير ، وسلام عليك يوم وأدت ، ويوم أسلمت ، ويوم ناصرت ذبيك وحبيبك ، ويوم بويعت بالخلافة ، ويوم ثبت الدين ، واقمت دعائمه •

اصلان عبد السلام حسن

يونيو ١٩٨٧

القاهرة - روض الفرج

شارع عبد القادر طه ٢٨

ت : ٦٥٠٤٨٥

## تصويبات

حدثت بعض الأخطاء ، وقد وقفنا الله أن عثرنا عليها ، و  
يلى التصويبات :

| رقم<br>الصفحة | المنظر | الخطأ         | الصواب         |
|---------------|--------|---------------|----------------|
| ٨             | الأخير | تحق           | نحن            |
| ٦٥            | ١٨     | لنستقنع       | لنستقعا        |
| ٦٥            | ١٨     | ناضية         | ناصية          |
| ١٠٠           | ٢٣     | ورسلا قصصناهم | ورسلا قد قصصنا |
| ١٠٠           | ٢٤     | علليك         | عليك           |

رقم الايداع ٨٨/٧٣١٨  
الترقيم الدولي ٥ - ١٩٥٥ - ٠١ - ٩٧٧